لأنك وطني

لأنك وطني

رواية

نهى أبو الرُب

لأنك وطنـــــي

اسم الكاتبة: نهى أبو الـرُب
تدقيق لغوي: فريق المكتبة العربية
تصميم الغلاف: نانيس جنيدي
الإخراج الفنيّ: جمال عبدالرحيم
الطبعة / الأولـى – يناير ٢٠١٩
رقم الإيداع: 2018 / 25109
الترقيم الدولي: 978 – 977 – 6610 – 49 – 1

Arabiclibrary2017@gmail.com
Facebook.com/arabiclibrary2017

01030365801

جميع الحقوق محفوظة

الإهداء..

إلى ذاك الطيف الذي يؤرقني كل مساء..

لا هو غادرني..ولا تركني أخلد الى النوم

إطارات مشتعلة.. نيران متوهجة.. شوارع ضيقة ...أنا في وطني الذي ولد معي.. فكنت معه منذ الأزل.... أذكر أن الزمن لم يستطع قهر شوارعه العتيقة ..... ولا الحنين المتدفق من ينابيعه إلى وجوه شيوخه القديمة .... كنت صغيرة ...مازلت أذكر حين كانت أمي تأخذني لأتجول في أرجاء قريتي.. مازالت كما هي ..... كثير من شوارعها يغطيها الرمل والتراب ... حتى الباعة فيها هم أنفسهم ...

كبرت قليلاً.. وكل شيء مازال على حاله .... إلى جانب بيتنا محل صغير تباع فيه الأزهار... فعجبت دوماً ... كيف تباع الأزهار في وطن محتل ؟ كبر معي هذا السؤال وكنت أخشى سؤاله لأمي فتغضب ...ماتت أمي ... وغبار قريتي يغطي وجهها ... فحملت السؤال معي لأبي ... الذي فقد بموت أمي طعم الألوان ورائحة الوطن ... فكيف لي أن أسأله؟

بقيت وحدي مع جدتي المرأة العجوز ...على الرغم من أنها كانت ضعيفة البصر... قليلة الحيلة ... إلا أنها الأجمل .... لعلني كنت أحبها لأنها وحدها التي كبرت على صوتها ودفء يديها ... فقد سافر أخي حتى نسيت ملامح وجهه ... أصبحت الأن في الخامسة عشر من عمري .... وبدأت ألمح في قريتي صوراً لم أعهدها من قبل.. هل أضافها الزمن لها ؟

لا أدري ... فكل قرى وطني تزينها الأشجار... وإطلالة ينابيع الماء العذبة... حيث يلتقي العشاق كما تقول الروايات ... لكن لون السماء لم يتغير فيها.. رغم عبث المحتلين .... كنت أنعم بصوت خرير الماء وحفيف الأشجار عند الصباح ... أقفز وأسعد دون علمي أني فقدت جزءاً من وطني حين مات أبي وأمي

... يا لحنيني اليهما! ... فأنا لم اعرف بعد ... ولعل غيري كذلك.. بماذا يمكن أن نسمي الموت ليستقبله الأطفال بسلام حين يفقدون أحبابهم؟

أذكر أيضاً حين كنت صغيرة أن هناك شيئا صغيرا يكبر معي ... ينمو ببطء لكني أكرهه ... فهو لايفارقني ... أشعر بالضيق منه لكنه يلازمني ...ماهو؟ كيف أتخلص منه ؟ لصغر سني لم أعرفه.... وفي يوم... حين كنت عائدة من مدرستي ... أحمل حقيبتي وأبتسم لأن اليوم قد بدأ عندي منذ خروجي من المدرسة .... أكتشفت عندها أن ليس بالضرورة ابداً أن نطلق على أيامنا صفاتها حتى لو كانت هذه الأيام ملكاً لنا ... فهذا يوم حزين ..... وأخر سعيد ...وذاك باهت ... لانعلم.. وحدها الدقائق هي التي تسوقنا إلى أخر المطاف ....وعندها نملك الحق في تنفيذ حكمنا عليه .....

حين رأيت المحتل بجنوده وسياراته العسكريه .... خفت ... لم أستطع المشي خطوة واحدة .... بقيت أنظر إليهم .... وكأنني أراهم للوهلة الأولى ... عرفت تلك اللحظة أن ذاك الشئ الذي عاش معي منذ صغري هو الخوف... فحزنت وبكيت ... لأن جدتي دائما كانت تقول لي .... أن الاحتلال والخوف وجهان لزمنين لن يلتقيا .... فإن إلتقيا فقد خسر الخائف فيها كل شيء .. معادلة صعبة .. إلا أني بدأت أفهمها... وبدأت أبحث عن الدواء!..

بائع الأزهار في قريتي.. رجل في الخمسين من عمره .. اسمه أبو علي وهو والد صديقتي هدى.. قد تربيت على نظره ومسمعه فكبرت مع ابنته.... وكنت أنا وهي نعادل بعضنا عنده .. حين أقف على باب محله كنت أقف طويلا " أبحث عن موضوع نتحدث فيه حتى يقتنع ولو للحظة أني كبرت..

_صباح الخير يا عمي ؟

نظر أبو علي من خلف نظاراته الكبيرة .... ابتسم وهو يحمل الكثير من الأزهار الملونة في يده ثم قال:

-اهلا" بالريم الصغيرة..ضحكت ريم ببراءة الاطفال وتقدمت إليه وهو لا يحتاج إلى النظر إليها ... لأنه يحفظ ملامح وجهها غيبا" فقالت محاولة طرد فكرة طفولتها من ذهنه:

- ما عدت صغيرة يا عمي..

_لكنك في عمر هدى إبنتي ...

مشت ريم بخطوات صغيره إلى داخل المحل ... مداعبة أزهاره وقد توقدت في ذهنها فكرة لطيفه فقالت محاولة استقطاب أبي علي لترتاح من عناء هذا السؤال الذي لازمها فترة طويله :

وطني محتل ... فكيف تبيع الأزهار فيه يا عم ؟

شعرت ريم أنها نجحت بترك والد صديقتها الأزهار من بين يديه والنظر اليها مرارا" قبل أن يجيب عن سؤالها فيقول :

- لأننا حين نتحدث عن الموت نذكر الحياة ... وحين نذكر السماء نطأ الأرض ..وكذلك الاحتلال يذكرنا وجوده يا ابنتي بضرورة الأمل لنستطيع العيش في ظله ... وهذا مالا نجده إلا في أزهار الوطن

قلبت ريم نظرها في الشارع الطويل الممتد من القرية ثم ضحكت وقالت:

- لم افهم شيئا" مما قلت ياعمي

تأفف أبو علي ضجرا" ثم قال :

-أرأيت أنك ما زلت صغيرة

خرجت ريم غاضبة من محل ابي علي .... وبدأت تنظر في أنحاء القرية التي يمكن لها أن تمشي فترة ليست بالطويلة لتستوعب كل شوارعها وأزقتها

..كثيرا مما يحدث فيها لا يتجدد ... مثل أم عمر .... الجارة الملتصقة بهم ... كل يوم تراها ريم تقف أمام بيتها ولا تغادره حتى المساء ... لماذا ؟ لم يكن أحد من أهل القرية يعرف السبب فهي متزوجة ولها أطفال ... إلا أن احدا" منهم لم يكن يرى..

وكعادتها ريم تسللت بفرح مداعبة جدتها... التي كانت تضرب بعصاها الأرض مستفقده لها لتقول :

_صباح الخير يا جدتي ..

لم تجب الجدة ... بل كانت منتفخة الوجه ... غاضبة ... إلا أن ملامح الطيبة لا تكاد تختفي من وجهها حين ردت قائلة :

-لماذا لم تذهبي إلى المدرسة اليوم؟ ...

عدلت ريم ثيابها ونفضت الغبار عنها قائلة :

-لكن اليوم عطلة يا جدتي ..

-ولماذا ؟

ضحكت ريم بخفاء ... وقالت بحرية :

لأنه يوم عطلة يا جدتي ... فهل ترغبين بأن أحضر لك طعام الإفطار؟

كأن الجدة لم تسمع ما قالته ريم ... التي ضحكت وقد عرفت أن جدتها على عادتها لا تحب طلب شيء من أحد ..وتعلق ذلك على ضعف سمعها ورؤاها .. لا يهم .. فقد اعتادت ريم رغم صغرها على ما يكبر عمرها ... إلا وجود المحتلين في وطنها ... فهم حين يداهمون قريتها كانت لا تقتنع ابدا" أن هناك شمسا " تشرق ... وصباحا" يورق

-جدتي

لم تغادر عينا ريم وجه جدتها وهي تنظر إلى الأدويه الكثيرة في يدها ... كررت ندائها حتى انتبهت إليها الجدة فقالت بصوتها القديم الدافيء :
-ماذا تريدين يا ريم ؟

-أريد أن أسألك سؤالا .."
-إسألي ولكن بسرعة
-جدتي هل تخشين الاحتلال ؟
توقفت الجدة لبرهة عن تناول الطعام ونظرت ببعض الغضب إلى ريم ثم قالت
-كلا .. وهل تخشينهم أنت ؟
تلعثمت ريم قليلا" ثم قالت:
-لا أعرف يا جدتي
تنهدت الجدة بحزن على حفيدتها وحاولت أن تبتسم بعد أن عرفت الحقيقة ثم قالت:
-يوما" ما .... وفي لحظة ستكتشفين أن هناك ما هو أكثر أهمية من الخوف ... وأنك ربما تحتاجين إلى الخوف من غير المحتلين أكثر يا ابنتي .....
تاهت ريم قليلا" في فكرها ... وكأنها تحاول فهم ما تقوله جدتها ولو بعد حين

القرية على عادتها كل صباح.. هادئة.. رغم أن هدوئها لا يشبه هدوء اية قرية دون محتل .. ربع ساعة بين بيت ريم والمدرسة .. وهذا الزمن يمكن أن يتحول إلى نيران حزينة في قرية محتلة لا يستطيع فيها أحد أن يأمل بحب أو إزهار لهذا اليوم الجديد لم تتوقع ريم أن يكون هذا اليوم من الأيام القلائل التي ستواجه فيها المحتل وجها" لوجه .... وهذا ما بدأت تتوجس منه بعد

مغادرتها البيت بدقائق حيث بدأ قلبها يدق بخوف وسرعة وهي ترى جموع المسلحين تتراكض في شوارع قريتها ... لم يكن هناك أطلاق للرصاص بقدر ما كان للحقد المتنامي في عيونهم وقلوبهم .... اقتربت الصديقتان فيما همست ريم لهدى وهي تضغط على يديها بقسوة :

-هدى .. هيا نعود للبيت ... كأن مواجهات ستبدأ بعد قليل..

كانت هدى أقل خوفا" وهي ترقب الاحداث السريعة من حولهما ... حاولت مرارا" أن تخفف من خوف صديقتها ... لكنها لم تستطع ... تنفست بعمق وقالت :

-ريم.. عليك أن تتمالكي نفسك.. فهذه ليست أول مرة نجتمع فيها مع والمحتلين والموت...

وما أن ذكرت هدى كلمة الموت حتى أنفجر الخوف مع صوت الرصاص الذي رافق صورة من الإضطراب المغير لمعالم القرية .... وهنا استطاعت هدى أن تركض بسرعة وتفلت بيد صديقتها ... فلم يعد يجمع بينهما شيء ..

كانت لحظات عصيبة واجهت فيها ريم الحقيقة لأول مره.. ليس ثمة من يقف إلى جانبها .... لم يعد يعني لها الزمن شيئا" فهي بين يدي الموت حيث لا صباح ولا أثر للحياة... شعرت أن وطنها يحتضر ..... يخنقه المحتلون بأيديهم لتموت معه في سلسلة من التضحيه المبدوءة بأول الزمان ... هذه أول لحظة تشعر فيها ريم أن والديها ذهبا إلى غير رجعة... فليس هناك من يحميها من لظى الرصاص .... قدماها لا تقويان على الحراك خطوة .... لقد نسيت كل شيء .... كيف يمكن أن نقوى في أضعف لحظة تمر علينا؟.. كيف نبحث عن احتياط نخفيه دوما" من الامل ننساه ولا نلقاه الا في هذه اللحظات؟.. أيقنت أنها النهاية ... لوهلة.. سمعت من بعيد صوت هدى يناديها ويدعوها إلى الحراك بسرعة

....لكنها وقفت.. أغمضت عينيها وضغطت بكلتي يديها على أذنيها الصغيرتين لتستلم للبكاء الممتلىء بالخوف والشعور بنهاية الاشياء الجميلة ....

ماذا يمكن أن يملأ الانسان ويهاجمه في تلك اللحظات؟

هل هي الذكريات؟ .... لعلها.. فهي الوجه الآخر لشعورنا بأن هناك حياة يجب أن نعيشها ورحلت عنا بسرعة ...إلا ريم ... الفتاة الضعيفه التي كانت تنتظر رصاصة تخرق جسدها اليتيم .... وما أصعب الانتظار... فهو أصعب من الموت نفسه.. لم تعد ترى من دموعها الا الشارع الضيق الذي طالما مشت عليه مع أمها حين كانت صغيرة ....لقد أوشكت على الالتصاق به ... وقد عطلت كل حواسها تنتظر نهايتها

فما الذي حدث ؟ لا تعرف شيئا"..ثمة يد قويه امتدت اليها وجذبتها بسرعة لتركض بها وتلقيها بين تلك الاشجار التي خلقت لتحمي أبنائها من ظلم المحتلين ... يد من؟ لعلها للعم أبو علي ... فقد كانت يدا" معطرة بأزهار الوطن ..... ربما هي يد أم عمر.. تلك المرأة المنتظره على الدوام .... ففيها عشق صغير لا يشعر به إلا صاحبه .

الجدة ؟! لا.. ما الذي سيأتي بالجدة الضعيفة إلى هذا المكان المزروع بالرصاص والخوف؟.. للحظة واحدة تنهدت وتوقفت عن الصراخ لتكتشف المقارنة بين ما مر معها في تلك الحظة.. وبين ارتطامها بأشجار الزيتون الضخمة .... تلك اليد التي امتدت اليها لتنقذها كانت لوجه مغطى بلثام لا يرى منه الا العينين الملتهبتين بالعناد والقوة والغضب .. وصوتا رغم هدوئه لكنه عاصفة من الماضي المزين بالشجاعة حين وقف ينظر إلى ريم باستهجان قائلا :"

-لا تنتظري من أشجار الزيتون أن تنقذك من خوفك..

ثم مضى.. تاركا ريم ملتصقة بالارض.. باكية.. حزينة ..لا تفكر أبدا في تلك العينين الجريئتين لذاك الصوت الذي لا تعرف عنه شيئا..

_هل وجود المغتصبين يمنع عشق الصباح في أرض الوطن ؟ فالصباح ملك لنا حين تلوثه أيد غريبة... هذا ما كانت تفكر فيه ريم وهي تقف بحذر على النافذة تسهم في نظرها للمجهول.. كان أصعب موقف مر بها رغم صغر سنها..
_هل خوفي مبرر ؟أم كان علي أن أكون اكثر شجاعة ؟ ها هي أشجار وطني كلها صامدة رغم عناد المحتلين .. ألا أكون مثلها ولو للحظة واحدة؟

كيف حالك الأن يا ريم ؟

أفاقت ريم على صوت صديقتها يتخلل جسدها الصغير... ابتسمت ببراءة وهزت رأسها وأخر الشحوب يغادر وجهها الجميل قائلة:

-أنا بخير الان ... ولكن ..

جلست هدى على المقعد لتقترب منها ريم متجاذبات أطراف الحديث بطفولة واضحة:

-ولكن ماذا ؟

-أفكر فيما حدث ..

-المهم أنك بخير..

-ربما..

أنهت ريم جمع كتبها وهي ترسم دقائق يوم لا تعرف كيف نبع وأين سيصب؟ .. شعرت حين غادرت البيت أن كل من في القرية أنقذها من الموت في لحظات...

كانت هذه المرة الاولى التي ترى فيها ريم هذين الشابين اللذين يجلسان على كراسيهما المتحركة ويتسابقا مع نسائم الصبح الجميلة .. منظر بديع ... هل يمكن أن يحصد المرء الأمل من قمة اليأس ؟ لعل الاجابة وجدتها ريم مختبئة عند المسافه الفاصلة بينهما..

وكزات خفيفة على كتفها نبهتها إلى تأخرها عن المدرسة وهي تقف لترقب تلك الابتسامة الجميلة التي زينت وجهيهما بسعادة وهما يستقلان كراسيهما ليهبطا بها من علو الشارع إلى أسفله ... قلبت ريم نظراتها بين وجه صديقتها هدى وبينهما ثم قالت بإستغراب واضح:

-هدى.. من هذين الشابين ؟ وماذا يفعلان ؟

ركزت هدى حقيبتها على كتفيها بسرعة دون أن تنظر لأي أحد وقالت ببرود:

-إنهما شابان مقعدان كما ترين.. سكنا قريتنا منذ وقت قصير فقط -... ولكن ماذا يفعلان ؟

سمعت ريم صوت تأفف هدى الذي ذكرها بوالدها الضاجر من أسئلتها الكثيرة ثم قالت:

-كل صباح هما يتسابقان على كراسيهما المتحركة... ربما أنهما أحمقان أو يحبان التسلية المتعبة ....

كانت خطوات كثيرة تفصل بين هدى التي اتجهت إلى المدرسة وبين ريم التي كانت ترقب الشابين وهي تبحث عن شيء قد لا تجده إلا عندهما.. تقول جدتي أن الوطن أشبه بزجاجة كل شيء فيها جميل .. رقيق .. له رائحة عذبة ... وأن حبنا لها أو خوفنا عليها قد يكسرها في أقصر لحظة...

لم تكن هذه الكلمات تستوقف ريم دوما" فهي لم تكن تعلم معنى كثير منها .. لكنها سعيدة لأنها اكتشفت معنى وجود أشجار الزيتون التي تحمي أحلامنا المختبئة بين أحجار الوطن دوما.. "

لحظات وثواني تحولت إلى دقائق وأيام لم يطرأ فيها جديد على فتاة بعمر الورود وجدة بعمر الزمن... كان حلم ريم الصغير أن تعرف منْ تلك اليد التي أنقذتها؟.. فثمة أمر هام يجب أن تقوله له... هذا الحلم رغم صغره كان يزين حياتها وينعشها ويدب الأمل فيها ... فهي تحتفظ بسر جميل هاديء لن تفصح عنه حتى لأعز صديقاتها.. ورغم كل شيء انتهت الأيام الطويلة مما إضطر ريم لأن تترك الامر للزمن فلعل الجواب يكون عنده..

وفي بداية كل صباح كانت تقف ريم بضع دقائق ترقب سباق الشابين مع السعادة وتتركها هدى لتلحق بها فيما بعد ..هذه المرة كان الامر مختلفا".. ثمة من فصل بين الصديقتين ...إنها خطوات قوية.. وجريئة تفاجأت بها ريم تقترب منها لترفع بصرها وترى شابا" ضخما" ذي ملامح غريبة وعينين سوداوين تلمعان ببريق ضعيف.. لوهلة خشيته.. لكنها مضت بخطى بطيئة.. خائفة.. ثم تنهدت براحة... فهو لم يلق تحية الصباح ولم يحرك شفتيه للحديث معها.. لكن وجه هدى وذاك الشاب حاصرا ريم التي كانت تقف بينهما لتستمع لتلك الكلمات التي قالها بسرعة قائلا":

-من المحزن أن يلتقي الخوف مع الجمال في وجهك يا صغيرتي.... كانت كلمات قاسية قالها بهدوء ودون أن تتغير معالم وجهه ..من هو؟ وماذا يعني؟ لم تستطع ريم أن تقول شيئا" حتى شعرت بيد هدى تمتد اليها وتبعدها

بسرعة عن ذاك الشاب سيء السمعة كما وصفته هدى والذي يدعى سالم..
-سالم .. شاب يشك أنه يعمل مع الاحتلال يا صديقتي ..
كانت ريم تستمع لكلمات صديقتها وهي تهزرأسها رافضة ما تقوله ...فهو على علم بما حصل.. إذن هو من أنقذها

صوت ضحكات هدى كان يثير قهر ريم التي كانت تشعر بمدى سخافتها وضيق أفقها فقالت بغضب
-وماذا كان يعني بحديثه إذن ؟

بدأت هدى تخفف من حدة حديثها مع صديقتها التي تعاطفت معها كثيرا" قبل أن تقول:
-شيء طبيعي لشاب مثله أن يحضر مواجهة كهذه ...فهو متعاون مع الاحتلال ويسكن قريتنا ..
وقفت ريم غاضبة وأشاحت وجهها عن صديقتها متمتمة:
-لا تقولي عنه ذلك ..فرغم أن عينيه ليستا عيني ذاك الشاب.. الا أنني أشعر بأن هناك ما سيجمعنا يوما" ما...
أثارت كلمات ريم ضحك هدى المتواصل وهي تعلق بسخرية قائلة:
-لعلك تنوين الزواج منه يا صديقتي...
-كفي عن سخافاتك يا هدى.. فأنا ما زلت صغيرة على الزواج ...
انتهى ذاك الوقت الذي جمع بين الصديقتين أثناء عودتهما للبيت وكل منهما تفكر فيما قالته الأخرى
ما أجمل يوم العطلة الذي يذكر بأن الوقت له شكل أخر...هذا كان رأي هدى وهي ترتب أرغفة الخبز الطازجة على المائدة التي ستزينها ريم اليوم

بمشاركتها طعام الإفطار.. حاولت ريم وهدى أن تخرجا عن نمط الاحاديث الطفولية قليلا" دون جدوى فالعمر يقزمنا كما يشاء.. كان أجمل اقتراح لمثل هذا اليوم أن يساعدا العم أبا علي في تنسيق الزهور... وينعشاه بوجبة افطار شهية لعل من خلالها تكتشف ريم سر تعليق والد هدى عليها بإستمرار....

توقفت هدى قليلا" في الطريق الواصل بين بيتها ومحل والدها ثم قالت

-هل ترغبين بمعرفة السبب؟

عادت ريم خطوتين إلى الوراء حيث صديقتها وقالت بلهفه :

-أجل... أرجوك...

أشارت هدى بإصبعها إلى أخر الشارع حيث يقف شاب خرج لتوه من بيته المقابل تماما" لبيت ريم وقالت:

-هل تعرفين ذاك الشاب ؟

هزت ريم رأسها وقالت بسرعه لتجد الجواب:

-لا ..لا أعرفه

ابتسمت هدى وقالت بسخرية:

-لهذا السبب أبي يعلق عليك دوما"..فأنا التي أسكن أخر الشارع أعرفه.. وأنت المجاورة له لا تعرفينه.. هذا الغباء بعينه ...كأنك لا تنتمين إلى القرية ابدا .."

فركت ريم أنفها باصبعها لتداري حمقها قليلا" ثم قالت بخجل:

-ومن يكون ؟

-إنه حمزه...

ضحكت ريم بصوت منخفض وهي تهم بدخول محل أبي علي الذي تفوح منه رائحة ازهاره المميزه.. كانت لحظة غريبة جمعت بين الأزهار الملونة وريم والشاب الذي يتبادل اطراف الحديث مع والد هدى... شعرت أنها ولدت

لتوها ..لا تعرف إسمها..ولا دفء يديها وقد فقدت الاحساس بما يدور حولها..إلا أن فم هدى الذي إقترب من أذنها أشعرها بالارتعاش وهي تقول:

-هذا الشاب شقيق حمزه ... اسمه عصام.....

لم تر ريم ملامحه بعد.. حتى نظر فجأة إليها وقد صغرت حدقتا عينيه بعمق غريب .. ورغم أنه أشاح وجهه بسرعه واستأذن في الخروج الا أن ريم لم تفارقه بعينيها لحظة واحده...

-عصام.. انه هو ..بالتأكيد.. ملامحه الرجولية...عيناه العنيفتان الهادئتان ..جسده القوي ..أيكون هو؟ أم أنني اصبحت أهذي إلى درجة أرغب فيها بتعليق الامر على شخص ما لأريح نفسي من عناء التفكير.. إذا كان الكبر سيأخذ مني طفولتي وراحة نفسي.. فأرغب في أن أبقى صغيرة كأزهار عمي أبي علي.. لأنني لن أسمح لشيء في هذا الكون أن يأخذ مني صفائي وطفولتي.. سيبقى صباحي جميلا أرى فيه كل من أحب وأشتم فيه نسائم الصبح الخلاب..

لم تغادر هذه الافكار عقل ريم الذي شعرت بإرتفاع حرارته ورغبته في هجران رأسها إلى الابد وهي تدس به مرارا" على الوسادة لتصل إلى نتيجة تريحها من ألم الأرق الطويل...

كم صباحا"مر وغروبا" حل؟... لم تعد ريم تذكر.. يسعدها فقط أن العطلة تطرق الباب رغم جو الامتحان المزعج والكئيب دوما" ...لا بأس.. نحتمل أياما" قليله لنسعد أشهر العطلة استعدادا" لعام جديد .... هذا ما كانت تتحدث فيه الصديقتان أثناء ذهابهما وإيابهما الى المدرسة.. وفي كل مرة ترى فيها ريم سالم وحمزه كانت تشعر أنها تراهما لأول مره .. حتى الشابين المقعدين .. إلا عصام الذي لم تحظ برؤيته الا مرة واحدة فقط...

-تبا" للعطلة إذا كانت ستبدأ بهذا الحال

لم تخف هدى ضحكاتها وهي تستمع الى ريم التي أنهكتها جدتها بترتيب حديقة المنزل مرارا" لتهم بزراعة أشجار جديدة... حاولت ريم تغيير جو العمل المضني كما تصفه ...تنظر الى صديقتها الممددة على العشب الاخضر وتنظر الى حالها المتسخ من كثرة العمل.. تركت ما في يدها ثم قالت وهي ترفع تلك الأوراق التي غطت فيها هدى عينيها من أشعة الشمس الحارقة :

-هدى... أخبريني من يكون عصام ؟

أعادت هدى تلك الأوراق ثانيه إلى عينيها وقالت:

-لا أعرفه كثيرا" ...أعرف أنه سيبدأ العام القادم بدراسة الهندسة... فهو يكبرنا بعامين

-حقا!"

لم تفارق الابتسامة وجه ريم الذي كان بعيدا"عن مرمى عيني هدى وقد تنهدت بسخرية ثم قالت:

-وما الغريب في الامر؟

-لا شئ ...إنما ..

جلست هدى بسرعه وقد تطايرت عن وجهها تلك الاوراق وقالت بصوت مرتفع:

-إياك أن تقولي لي أنه الشاب الذي أنقذك حتى لا أكون سببا "في قتلك الان

....استهجنت ريم لوهلة كلمات صديقتها ثم مدت جسدها لتسترخي وقد تأكدت لحظتها أنه في موقع الشك المؤكد..

من في القرية لا يعرف ماجد؟..
إنه شقيق هدى.. شاب في الثامنة عشر من عمره ...وجوده لم يكن مهما لريم في أي عام سبق ... إلا أنه اليوم وفي هذه اللحظات كان يعدل حياتها كاملة.. رغم عدم معرفته بشيء ...فوجوده كان سببا" في التقائها بعصام أمام بيته.. كل فصول السنة التقت في أهداب ريم وهي تبتعد خمس خطوات عنه ..يا لهذا الزمن الذي يشتت ويجمع وكأننا لعبة في يديه! ...حاولت ريم أن تبتلع ما يبلل فمها لتخفف من قسوة الاشياء في قلبها الا أنها لم تجده...وكأنه تبخر مع كل نظرة كانت ترقب فيها ذاك الشاب المتغيب عنها منذ التقائهما .. كان يرفع عينيه ويبسطهما في انتظار ماجد ..وكأنه لا يلمح أحدا" جانبه رغم التقاء عيونهم لوهلة..
لم يكن كل هذا يعني شيئا" لريم الصغيرة التي اقتربت نصف خطوة لتقول بصوت خائف وطفولي:
-أأنت هو ؟
إنتهز عصام فرصة هذه الطفولة.. فلم يجب... بل انه لم ينظر اليها أصلا " وهي تكرر المحاولة قائلة:
-بل أنت هو ..أليس كذلك ؟
صوت ضحكته أزعجها وذكرها بأبي علي واستهتاره الدائم بها ..فتبلورت دموع طفولية على حدقتيها ... صمتت ولم تجرؤ على قول شيء ..صمتها أشعر عصام بالحرج والندم.. فقال وهو ينظر إليها ببساطة:

-من تعنين ؟

تنفست ريم الصعداء وحاولت أن تطرح كل انزعاجها جانبا" ثم قالت بقوة:

-أنت الشاب الذي أنقذني قبل أشهر ؟

هز عصام رأسه وقال بصوت منخفض:

-لا..

لم تصدق ريم تلك الكلمة التي هوت بها الى التيه والغضب .. فتقدمت خطوة أخرى ووقفت مواجهة معه.. ناظرة الى عينيه اللتين أخفاهما بسرعة ... ثم صرخت:

-بل أنت هو... إنك تخشى مما سأقوله لك لذلك تنكر...إنهما عيناك أنا اعرف ذلك جيدا..."

تحول الحديث فجأة الى كلمات جدية وقوية بينهما ...فوقف عصام بقوة أمامها وقال:

-وماذا ستقولين لي ؟

فاجأت جرأة عصام ريم وقد نسيت كل الكلمات التي كانت تعدها منذ ذلك الوقت.. حاولت أن تلملم شيئا" منها أو تتذكر.. لكنها نسيت .. وما أن إبتعد عنها مستطولا" لصمتها حتى قالت بسرعة:

-كنت يومها خائفا مثلي... ولم يكن يظهر من جسدك الا عينيك.. فلماذا إنتقدت خوفي إذن ؟

لحظات قصيرة وانفرجت أسارير عصام عن كثير من الانفعالات المتناقضة.. أعقبها ضحكة أظهرت لريم أنها صادقة ولكن بسخرية بحتة..لم تنتظر ريم في حياتها جوابا" مثل شوقها لكلمات عصام الذي تحول ناظرا" الى ماجد وقد خرج ليرحب بهما الاثنان...

كل شعرة كانت تغادر أنامل الجده كانت تترك حبا "هادئا" في قلب ريم التي أرخت رأسها على أحن وسادة في العالم ..وهي قدم جدتها ...هذه اللحظات هي وحدها التي تغني ريم عن كل أحزانها وتنسيها أن للعالم وجها أخر لا يعلمه أحد...

-جدتي...

صوت ريم الذي ينادي الجدة كان يتسلل ليلا ليستقبل ملامحها وهي تستعد لسماع سؤال حفيدتها التي قالت:

_هل حقا" يا جدتي أن أولئك الذين يخفون وجوههم أمام الاحتلال هم جبناء؟

توقفت الجدة عن غرس أصابعها في شعر ريم المنسدل ...ثم رفعت نظارتها بغضب وقالت:

-لا ...إنما هم يستدينون من الموت لحظات ليمنحوا بلادهم الحرية...

جلست ريم بسرعة وغضب ثم قالت:

-ماذا تعنين يا جدتي ؟

-أعني أنهم يخفون ملاحهم حتى لا يعرفهم الاحتلال..ليس رغبه منهم في العيش فقط.. بل من أجل الدفاع عن وطنهم حتى أخر لحظة..

شعرت ريم بأن فصل خريف كامل مر بأساه وجفائه وهي تستمع لكلام جدتها التي فهمت منه سبب سخرية عصام .. فقد كانت تتوق لتكذيبه حتى لا تحتمل عناء الاعتذار لذاك الشاب الذي لم تره منذ شهر مضى...

تلك الطرقات السعيدة التي كانت تطرقها ريم على بيت هدى أثارت إستغرابها حتى وقفت أمامها مستفسرة عنها ..مما حدا بريم أن تقول بعنجهية:

-لأنني اكتشفت أنك مثلي تماما"...تستحقين أن يعلق عليك العم أبو علي ...

إستغربت هدى من كلام صديقتها التي ما زالت تمسك بمقبض الباب وقالت:

-لماذا؟

أخذت ريم بيد هدى ومشتا خطوات كثيرة ثم همست ريم قائلة:

-هل ترين تلك المرأة وهي جارتنا أم عمر؟

-نعم ..ما بها ؟

-إنها منذ سنين وهي على هذا الحال تستيقظ صباحا" وتقف أمام بيتها حتى المساء ..هل تعرفين السبب؟

-لا

شعرت ريم بالنصر وهدى بالخيبة قبل أن توجه سؤالها الثاني قائله:

-كلنا يعلم أن لها زوجا" وأولادا" ...لكننا لا نراهم ..هل تعرفين شيئا "عنهم ؟

فركت هدى رأسها بيأس وقالت:

-لا..

-إذن أنت مثلي لا تعرفين شيئا" وبالتالي لا يحق لك أن تسخري من جهلي مرة ثانيه مفهوم؟

-سأحاول.....

-لا..بل ستفعلين ذلك رغما "عنك..

عام مضى ..أصبحت ريم في السابعه عشر من عمرها..وهو السن الاجمل كما تدعي هدى.. فلا هن صغارا ليسخر منهن أحد.. ولا كبارا فيحملن هموم الحياة ..ورغم أن حال القرية كما هو الا أن ملامحهن الانثوية بدأت تفرض نفسها بقوة مما كان يدعوهن للمباهاة والغرور ..

كان الشتاء في قرية محتله كترابه مبلل ولا يحمل رذاذه..لعله الفصل المناسب الذي اكتشفت فيه ريم سبب تقدم المرء في سنه وعدم اكتفائه بعمر واحد.. فكل شيء له طعم ولون وإسم أخر كل عام ..حتى تلك التلة التي تطل على قريتها دفعة واحدة والتي كان لها اليوم شأن خاص حين قابلت عندها ذاك الشاب المسمى عصام.. والذي ينكر دور البطولة دوما" بخلاف من هم في عمره ..كانت ريم تجهل على الدوام سبب صرف نظره عنها بسرعة حين يلتقيا..واليوم كذلك ..وقفت هي تحيطها أشجار الزيتون المبلله بالمطر الدافيء ..ومضى هو يحمل ما لا تحسن ريم رؤيته من ملامح غريبه وعميقة....

-صباح الخير....

ألقت ريم تحيتها بحذر وإنتظار.. مروقت أفسد تحيتها الهادئة قبل أن يلتفت عصام وراءه ويهز رأسه قائلا:"

-صباح النور...

ارتعشت ريم بشغف ثم سألت بخوف:

-أنت هو ؟

ابتسم ..نظر طويلا" الى الاشجار وهي تستقبل أمطار السماء بفرح غامر وقال بصوت قوي:

-أجل ..أنا هو..

كانت تلك اللحظة التي تطايرت فيها بعض الشعرات المحتلة عيني ريم قاسية..خنقتها وأشعرتها بأن ينبغي لها أن تكون في أخر عمرها ..سخرت منها فصمتت.. وهي تترحل بعينيها بين تراب تلك التلة ودموعها المحتبسة دهرا"في عينيها ..لم تكن تعلم أن عصام يقرأ تماما" ما يجول في خاطرها وفؤادها الحزين حين أشعرها بالقهر والخزي وهي تصارع خوفها في تلك اللحظات

..اقترب قليلا" وقال بهدوء...

-لقد أنكرت في المرة الماضية لأني كنت على يقين بأنك لا تحسنين التفريق بين الخوف والأمل ..أما الان فالأمر قد تغير تماما ....."

رفعت ريم رأسها وهي تشعر بالخجل ..صارعت لحظات منها ..لتكتشف سبب معرفته بما قال فقالت:

-وكيف عرفت ذلك ؟

-لأنك كررت السؤال ثانيه..وهذا يعني أنك لم تقتنعي بما قلته أنت في ذاك اليوم..

-بل يعني أني مدينه لك بحياتي..

خطوات عصام المعدودة تسببت في غضب ريم حين وقف للحظة وهو يودعها قائلا:"

-في وطن محتل ..لا ندين لبعضنا بشيء.. لأننا في لحظات قد نفقد كل شيء

غادر عصام ..وريم تشعر أن تلك اللحظات التي جمعتهما كانت هي فقط عالمها الوحيد..

_صباح الخير يا جدتي..

ناولت ريم بعض الأدوية إلى جدتها وهي تعد طعام الافطار.. كانت متأكدة من أن جدتها كالعادة سترفع نظاراتها مرارا "وترد التحيه دون كلام ..اقتربت فجأة وقالت بسرور:

-جدتي ..هل كنت تحبين جدي؟

أنهت الجدة شرب الماء بغضب وصرخت بصوت عال قائلة:

-بالطبع كلا...

-ولكن يا جدتي.. كيف عشتي معه طوال هذه السنين؟

كان سؤال ريم مزعج.فلم يسبق أن صدمت الجدة بهذه الحقيقة من قبل ..مما جعلها تسهم في نظرها دقائق وتعيده الى ريم لتقول:

-كنا كذرات السكر...لا نتحد.. إلا أن مذاق الحياة لا يكون الا بتجمعنا سويا .."

ضحكت ريم طويلا" من كلام جدتها الصريح والذي بين لها أن الحب كالمطر.. على الدوام يرمينا بسهامه ...ولكن هيهات لمن يشعر بها..

بيت عصام الهاديء من خارجه..هو كذلك من داخله ..تزينه أمراة في الخمسينات من عمرها.. تبدو كعقد لؤلؤ لا يتألق الا في الصباح ...وقد اكتشف عصام هذا السر الجميل مما حداه الى أن يسترق تلك اللحظات ليداهم أمه كل يوم وهي تعد شيئا" ما في المطبخ...له رائحة تسحره وكأنها خلقت لاجله....

-حين تعدين طعامك يا أمي..أشعر أنك تجمعين الكون بيديك في لحظات وتهديها إلي بدفء عجيب....

ابتسمت الام وهي تسمع كلام إبنها وهو يقبلها محيطا" بها بيديه في حب كبير ...وقبل أن تقول شيئا"...دخل حمزه بخلسة وقال بشقاوة واضحة:

-وحين تعطيني مفتاح سيارتك يا أخي..أشعر أنني اصبحت رجلا

نظر عصام بإنزعاج الى شقيقه وقد جلسا ينتظرا الطعام بشغف ثم قال:

-أنت تعلم تماما" أنك لم تبلغ الثامنه عشر بعد ..وحين يأتي ذلك الوقت سأفكر في الموضوع.

تأفف حمزه من كلام عصام الذي سمعه عشرات المرات ...ثم قال:

-ولكن يا...

وقف عصام واتجه الى شقيقه في أثناء ترتيب الام لمائدة الطعام وقال منهيا"حديث حمزه الدائم:

-دعنا من هذا الحديث الان ..فأنا أرغب بأن أسألك سؤالا" بريئا" عن ريم.. تلك الفتاة التي تسكن مقابلنا..

ضحك حمزه بصوت مرتفع وضرب يديه ببعضهما وسط دهشة أمه وعصام ثم قال مستنكرا:"

-وهل ثمة رجل في العالم يسأل عن امرأة سؤالا" بريئا"يا أخي ؟

لم يعجب رد حمزه الام ...التي كانت تتمنى لو تشكل الدنيا بالشكل الذي يرضي ولدها عصام....فلا يتحرك شيئا" فيها الا برغبته وطريقته...وكذا عصام الذي رمى شقيقه بسهام لم تصل في نبضها الى حد الغضب ...فأشاح وجهه تجنبا" لأي صدام يمكن أن يقع ورحل ليترك حمزه خجلا" مما قاله...

كانت هدى ترقب ريم وهي تشعر لاول مرة بأنها لا تراها ولا تسمع شيئا" مما قالته.. كررت نظرها إليها بإستهجان وصرخت لتسمعها بوضوح رغم قربها:

-ريم.. مابك ..الأ تسمعيني؟

حركت ريم رأسها بسرعة وكأنها كانت في حلم قصير ثم قالت:

-بلى ..أسمعك تماما.."

-عما كنت أتحدث إذن ؟

شعرت ريم بإحراج شديد ..وآثرت الصمت لتقع في لسان صديقتها الحاد الذي انتهز الفرصة لينطلق بسرعة قائلا:"

-لقد أصبحت غريبة الاطوار...لم يعد هناك ما يلفت نظرك ...حتى أسئلتك السخيفة لم تسأليها منذ وقت طويل...سالم.. حمزه حتى أبي وأم عمر نسيت أمرهم تماما"...وأنا اذا لم أسال عنك..لا تسألي عني.. هلا أخبرتني ما الذي يحدث من حولي؟

أسئلة هدى الكثيرة والمرافقة لنبرتها المنتصرة أزعجت ريم وأشعرتها بأنها كانت في سفر طويل عن القرية.. وأنها ترتدي جسدا" أخر غير جسدها..ولا تملك إلا قلبها المتنقل بين مالا تعرف هي أصلا" ...لم تقل شيئا"...بل أن كلام

هدى قيدها وخنقها ليضعها في دائرة لم تخرجها من ضيقها الا حين ازدادت دهشة هدى من صمتها وقلقها الساكن في عينيها ثم قالت:

-ريم ..ما الذي حدث لك ؟ لم أعهدك بهذا الشكل...

تنهدت ريم بهدوء وكأن هدى كانت لها مطرا" في ليلة حارة ثم قالت بصوت متقطع:

-منذ عرفت أن عصام هو الشاب الذي أنقذني وأنا أكره نفسي وأشعر أن الاشياء كلها من حولي قد فقدت سبب وجودها في الحياة...

نظرات هدى لم تفارق ريم..الفتاة الضعيفة التي يحبها الجميع.. والتي كانت تتكلم بصدق دوما" فلا تحتاج الى تكرار حديثها ليقتنع به كل من يسمعها...

ذاك الوقت الذي يقع بين أول الليل ونصفه هو الوقت الذي كان يتجلى فيه عصام مع نفسه بسعادة أو غضب..بحزن أو فرح..فهو بيته الصغير في بيته الكبير..وما أن يطرق عليه الباب حتى يلملم كل مشاعره ويرتبها ليغلفها في قلبه ثانيه..ثم يقول بصوت هاديء :

-تفضل..

إنه حمزه... شعر به عصام قبل أن يدخل..فطرقاته شديدة وصوت اقدامه سريعة.. لم يكن عصام غاضبا" بالحجم الذي تخيله حمزه حين اقترب منه بخجل قائلا: "

-أنا أسف لما قلته اليوم.. لا أعرف لماذا أزعجتك بكلماتي الحمقاء تلك ؟

ابتسم عصام وضم يد شقيقه قائلا: "

-لا عليك ..أنا لا أغضب منك أبدا..."

-إذن ما الذي ترغب معرفته؟....

صمت عصام للحظات وهو يكتب على ورقة تالفة ليغير الموضوع المتحرك

بينهما ثم قال:

-إنس الامر فهو غير مهم...

جلس حمزه بهدوء مختلط بكثير من الحب الى جانب أخيه وما زالت يده ممتدة تحيط بعنق عصام .... ثم قال:

-ريم ..فتاه هادئة ...بسيطة ... الا أنها جبانه..

كرر نظره بتمعن الى أخيه مستفسرا" عن أخر ما قاله بشأن ريم ..فهم حمزه تماما" ما كان يصبو اليه عصام فتردد قليلا" وقال:

-أعني أنها تكره الاحتلال.....

وقبل أن يكمل كلامه أوقفته يد عصام متسائلا: "

-ومن منا لا يكره الاحتلال؟.....

-كرهنا للاحتلال يدفعنا الى الامام لنقاومه .. لكنها هي يدفعها الى الوراء لتتجنبه

في لحظة فهم عصام كل شيء وسبب ما حصل من ريم في أول لقاء بينهما فأسهم طويلا" في التفكير وكانت ملامح وجهه تنبض بالغضب الهاديء والشفقة عما ستلاقيه ريم في حياتها..

كل شيء كان هادئا" في قرية صغيره.. الا أوراق الشجر التي تعزف مع الهواء لحنا" لا يسمعه الا المارقين من حياة لا حزن فيها ... بماذا يمكن أن تحدث قرية محتلة صباحها كل يوم؟..سيمفونيه واحده..شروق للشمس وغروب يتوسطه آلام وأفراح وكثير من المشاعر التي تخنق أحبابها في لحظة فرح أو حزن .. هي أيام قليلة وينتهي كل شيء ... هذا ما كان يرسم الفرحة على وجهي ريم وهدى اللتين على مرمى من انتهاء المرحلة الدراسية والاستعداد لحياة جديدة لا يعرفا أين ستلقي بهما.

-صباح الخير....

ألقت ريم وهدى تحية الصباح على أبي علي المنهمك بأزهاره على الدوام ..إلا أن الجواب لم يأت منه ..بل من عصام الذي كان يحمل وردة صغيرة وينقلها بين يديه..عادت ريم خطوة الى الوراء لتستوعب ما نزل في قلبها مما لا تدركه من مشاعر ثم قبضت على كتابها وتركت لعينيها العبث بالنظر الى كل شيء دفعة واحدة.. لعلها تمحو كل أثار للتوتر حل بها.. لكن عصام الذي تحرك مغادرا "استأذن بهدوء قابضا" على تلك الورده التي لم تغادر يده أبدا"...مما استفز ريم لتوقفه قائلة:

-لم أتخيل يوما" أنك يمكن أن تحمل وردة..

ابتسم عصام بغضب ونظر الى ريم بعمق ثم قال:

-وهل أخبرك أحد أن حمل الورد ينقص من الرجولة ؟

لم تجد ريم أي جواب لسؤال تفاجأت به وكأنها كانت ترغب بأن تتحدث وحدها فهزت رأسها نافية وهي تنظر الى الارض بخجل واضح ونظرات محيطة بها من ثلاثتهما مما دعا عصام الى الاقتراب منها خطوة ليهمس قائلا: "

-إذن عليك أن تختاري ما ستقولينه في المرة القادمة....

بات هذا اليوم غريبا وهدى تنادي ريم للمرة الخامسة أو السادسة.. قد نسيت ريم كم من الساعات مرت وهي لا تقول شيئا.. وكزتها هدى بسرعة لتوقظها من غفلة لذيذة طويلة.. نظرت ريم مرارا الى صديقتها وقد ارتسمت على شفتيها ما يشابه ابتسامة حائرة متسائلة عما جرى لها.. تداركت نفسها مرارا ثم قالت:

-هل تناديني يا هدى؟

ضحكت هدى بمشاكسة واضحة ثم قالت:

-لا أبدا ..انما كنت أنادي صديقتي ريم.. هل أنت هي؟

شعرت ريم بالكثير من الخجل يحاصرها فترددت طويلا قبل أن تقول:
-ولكن ياهدى...
-ولكن ماذا؟ منذ الصباح وأنت في حالة غريبة.. أظنها أعراض عشق ياصديقتي..

عشق!.. إنها كلمة ترد للمرة الأولى في القاموس الصغير الذي يقع في قلب ريم البسيط فلم تكن تحسن إلا الوقوف أمامها خائفة.. مستسلمة.. رافضة.. وتائهة.. فهي لم تشعر بها الا في تلك الأشجار التي تحيط بالقرية المحتلة الصغيرة.. فلولا عشقها لقريتها التي تلفها وتحتضنها لتحميها من نير الاحتلال لما وقفت سنين طويلة.. طويلة.. فقد وصلت ريم التي كانت ترجو بعينيها صديقتها لتنقذها من ذاك الضيق الذي خنق الهواء في صدرها فأصبحت مقيدة لا حراك فيها.. حاولت هدى أن تخفف من وطأة ما قالته على صديقتها فقالت بهدوء:
-أعتقد يا صديقتي أننا وصلنا الى عمر نعشق فيه.. فلا تقلقي ..
تأوهت ريم وابتسامة هادئة تزين ملامحها حين نظرت الى صديقتها قائلة:
-وهل للعشق عمر يا عزيزتي؟
اتسعت عينا هدى وهي تستمع لصديقتها بدهشة واضحة ثم قالت:
-على الأقل علينا أن نكون وصلنا الى سن النضج..
-مهلاً هدى.. أرجوك لا تفلسفي العشق حتى لا يفقد جماله..
تداركت هدى نفسها فوقفت.. مشت خطوات تفكر فيما قالته صديقتها.. عادت الى كرسيها لتمر ثوان قليلة وتقول:
-أظن أن ليس هناك من يصل الى هذه الحقيقة إلا عاشقا يا ريم.. فمن هو هذا السعيد ياترى؟

كانت المفاجأة تسكن كل أنفاس ريم وهي تبحث عن جواب للسؤال.. لم تقل شيئا.. بل تركت السؤال الى المجهول..

-عجباً.. فهؤلاء الشباب يشعرونني بأن الأفق خلق لهم ليحلقوا به كما يشاؤون..

تلك اللحظات من اليوم التي كانت تلتقي فيها ريم مع الشابين المقعدين هي الأسعد في ساعات صباحها.. فالابتسامة لهما لم تكن تحمل قناعا أو زيفا تافها.. بل إعجاب مختلط بالرغبة في ملء القلب بالارادة كل صباح.. كان يوم ريم يبدأ بهما ثم ينتقل الى رؤية ام عمر صاحبة اللغز الميت الذي لا يعرفه أحد.. وهذا شأنها اليوم.. إلا أنها ما أن تنقلت بعينيها الى حيث تجلس ام عمر أمام بيتها حتى كان يقف خلفها مباشرة سالم وقد بدت على ابتسامته ونظرات عينيه الصامتتين ملامح الاعجاب ..تطايرت خصل من شعر ريم على وجهها لتمحو آثار الإرتباك البادي عليها.. ابتسمت بهدوء وهزت رأسها لتترك المكان الذي يجمعهما.. إلا أن أي شاب كان يقف بدلا من سالم كان من الطبيعي الا يترك فرصة تجمعه مع فتاة قريته قبل أن يقف أمامها قائلاً:

-صباح الخير..

لم تتحرك شفتا ريم.. بل نظرت مرارا الى سالم وهو لا ينظر لغيرها وهذا ما دفعه الى أن يقترب منها خطوة ليقول لها :

-أظنك تزدادين جمالا كل مرة أراك فيها..

شعرت ريم أن كثيرا من المشاعر تحركت في جسدها وقلبها.. لا تعرف ما هي ومن أين جاءت.. لكن كلمات سالم أعطتها الفرصة لتغادر مضطربة الى حيث لا تعلم..

فالقرية بدأ يغزوها البرد ويشتد مع اقدام المحتلين التي تدوسها كل صباح.. الى أين تذهب؟

لم تعطها الثواني والدقائق لتفكر في أي أمر.. فكما أوقفها سالم.. أوقفها شاب آخر أمامها.. كان يحاصرها بنظرات تشبه لون المطر في زقاق الطرق.. إنه عصام.. لم تعرف ريم من منهما زرع المشاعر الكثيفة في قلبها ومن حصدها؟ كل ما تفكر فيه هو الهرب.. مما؟ ولماذا؟هل تركها صمود عصام أمامها لتفعل؟ أبداً.. فهي اضطرت لرفع راية بيضاء لها إسم جديد يحمل معنى النصر والخجل.. وبسببها تركت عيناها تسبحان في فضاء واسع له ضيق جميل هو عينا عصام السوداء الهادئة التي ماأن توقفت أمامها حتى قال صاحبها بهدوء بالغ:

-من الأفضل لك أن تتجنبي الحديث مع سالم..

حاولت ريم بعد سماع كلمات عصام القليلة أن تنفض عن نفسها كل الذكريات والمشاعر والأشياء الحزينة.. لترسم ابتسامة أنثوية على شفتيها وتتكلم بقوة لم يسبق لها أن تظهر فقالت:

-وهل أخبرك أحد ما أن حديث المرأة مع الرجال ينقص من أنوثتها؟

تنهدت ريم بعمق وهي لا تعلم أبداً كيف اشتقت هذه الكلمات من قاموسه.. حاولت أن تبتعد عنه تاركة له عدم معرفة الجواب كما فعلت هي من قبل.. فلم يوقفها إلا كلماته التي ازدادت هدوءاً حين قال:

-بل يزيدها أنوثة..

لم تتغير ملامح عصام أبداً وهو يتحدث مع تلك الطفلة التي تقدمت بإتجاهه وقد شعرت بأنها وردة بيضاء تتمايل في أرضها وسمائها لتنعش يومها بالدفء الجميل.. مما يثير استفزاز الجميع من حولها وهذا ما كان حين رفضت انتصار عصام في حديثه فقالت:

-إذن عليك ألا تشعرني دوماً بأنني مدينة لك بالكثير وأن علي الرضوخ لكل ما تطلبه مني..

أوقفت يد عصام كلمات ريم المتهورة وهو يستهجن ما تقوله.. إلا أن الغضب الذي بدأ يتشكل في ملامح وجهه ومحيط عينيه أخاف ريم التي قررت ترك طفولتها للحظات حتى لا تزيد من أخطائها الحمقاء فيحصل مالا تحب..

حركت رأسها وقد أحاط الأرق الصغير بعينيها ثم مشت خطوتين لينهي عصام حديثهما بعبارة أخيرة وهو يقول:

-أنا لا آمرك بشيء ولا أجبرك على ما أنت غير مقتنعة به.. لكني أنصحك فقط..

-لماذا؟

للمرة الأولى شعرت ريم أنها كبرت في ثوان.. وأنها غيرت في حديثها مجرى الأحداث بقوة.. مما دفع عصام لأن يكون جاداً وحازماً حتى ينقذ ريم مما يخشى عليها منه فلم يترك لحظة لتفصل بينهما قائلا:

-لأن سالم سيء السمعة..

-ليس من حقك أن تصدر حكماً على الآخرين دون دليل.. عوضا عن أنني لم أتحدث معه أبداً..

-ولكن..!

-ولكن ماذا؟

_هل من حقكم أن تقضوا على ماضيه وحاضره ومستقبله لمجرد أنكم تشكون بأمره فقط؟

شعر عصام بأن من الأفضل لهما أن يقطع الحديث لئلا تحتدم الأمور بينهما..فأشاح وجهه وترك ريم غاضبة كما هو تماماً..

لأول مرة كانت ريم تعود لمنزلها بدموع حقيقية.. وتنهيدة مقهورة..هي تعلم تماما أن جدتها كانت تنتظرها بشوق وحب وأنها ترفض تناول الطعام والدواء حتى تعود.. لكنها لم تكن تعلم أن هدى بانتظارها أيضا.. تشاطر الجدة أحاديث جميلة وشيقة حتى أن صوت ضحكتهما تملأ البيت.. ألقت ريم تحيتها ودخلت محاولة أن تمحو آثار الدموع التي خشيت من هدى أن تلمحها.. جلست بعد أن قبلت الجدة ورحبت بصديقتها التي أمسكت بيدها وهمست قائلة:

-ما بك يا ريم؟.. من يرى دموعك يحسبك قد وقعت في الحب..

استفزت كلمات هدى مشاعر ريم أكثر فتركت يدها بقوة وقالت بعصبية:

-وهل تعتقدي أنه من السهل علي الوقوع في الحب؟..

ضحكت هدى بإستهزاء وبرود وقد وقفت الى جانب صديقتها قائلة:

-أمر غريب حقا!. أظن أنه من السهل علي فعل ذلك ..أتعلمين لماذا؟

-لماذا؟

ريم في سؤالها كانت تزرع برودة لا تحتاج الى جواب.. إلا أن هدى التي فهمت تماماً ما يدور في قلب صديقتها.. قالت بثقة واضحة:

-لأنني أرغب في عشق رجل سيء..

أخر كلمة قالتها هدى صدمت ريم بقوة فنظرت إليها دون أن تقول شيئا.. لكن ملامح الدهشة التي بدت وكأنها جزء منها.. أضحكت هدى بقوة وهي تعلم ما تنتظره ريم من لهفة في الجواب ..فوقفت وقد رفعت رأسها بتكبر واضح ثم قالت:

-لأن الرجل السيء ياصديقتي هو رجل على حقيقته لا يرتد قناعاً مزيفاً.. أما الرجل الجيد فهو يرتدي غير وجهه الحقيقي..

وقبل أن تكمل كلامها وقفت ريم بغضب وقد ازدات نبرة صوتها قوة وقالت:

-وهل تقصدين أن كل الرجال سيئين؟..

-أجل.. هذا صحيح ياعزيزتي..

-حتى عصام؟..

للحظات قصيرة جداً تغيروجه هدى وريم سوياً.. لكن هدى تداركت ما قالته ريم بسرعة وضحكت بخبث جميل ثم قالت:

-هذا ما أريد أن أصل إليه.. عصام..

كان إسم عصام يشبه الى حد كبيرلذة الغروب لشمس في شتاء دافيء.. تسعد به الطيور فتتراكض مجتمعة وكأنها في عرس مزين بالندى.. كيف يمكن لهذا الإسم أن يهزقوى ريم؟.. وقد سمعته فتنهدت بعمق وجلست بألم شديد دون أن تبدي رغبتها في الحديث عن أي شيء..

-هل يمكن لمن يداعب الأزهاركل صباح أن يعبث بالتراب؟

هذه كلمات ريم التي وجهتها الى هدى وهما تنظران الى والد هدى يلملم التراب الذي يقرب محله.. تمسكت هدى بالإجابة وردت قائلة:

-أبي أخبرني بالأمس أنك كبرت فعلا.. فقلت له أننا انهينا المرحلة الدراسية وقد أقبلنا على الجامعة فمن الطبيعي أن نكبرأنا ريم..

شعرت ريم بكلمات هدى وهي ترقب أولئك الشباب الذين يجتمعون حول عصام يضحكون ويتبادلون جملة من الأحاديث.. فصكت على شفتيها ونظرت الى صديقتها قائلة:

-اعتقد أنني كبرت منذ..
-منذ عرفت هذا الشاب الذي أخذ بألباب الأحباب والأعداء..
أحرجت كلمات هدى ريم قليلا بعد أن سعدت بإنهاء موضوع لا ينبغي الحديث فيه مع أحد غير عصام..

كثيرة تلك الأيام التي فصلت بين ريم والقرية.. فجل وقتها كان لجدتها العجوز ولبيتها الكبير الذي لايكف فيه عن العمل.. وهي أيام فيها الكثير من الثواني والدقائق التي تجهل فيها ريم ما حدث في القرية بإستثناء هدى التي لم تأت بجديد إلا شعور ريم بقرب فصل الشتاء البارد الذي لا يرى فيه أحد.. ولا جميل يحمله غير حب التقرب من الدفء والطعام اللذيذ..

كان ذاك اليوم هادئاً حين ألقت ريم جسدها قرب جدتها لتمارس طفولتها في مداعبة أنامل جدتها لشعرها المعطر بألق المساء.. لم ترغب بقول شيء.. فهي لم تخرج من بيتها منذ وقت طويل حتى لا تقول شيئاً.. وهذا ما كان يزيد المساء هدوءاً مبالغ فيه... حتى أنها لم تخطط لفعل أي شيء إلا النهوض للاستلقاء في فراشها... لم تخفها تلك الطلقات الرصاصيه التي يسمعها كل من في القريه بشكل شبه يومي ... حتى بعد إزديادها وارتفاع صوتها لتملأ القرية..

نهضت ريم وقبلت جدتها لتسدل ستائر الغرفة بخوف بسيط ... ثم صعدت بعض الدرجات التي توصلها الى غرفتها ...لكنها لم تستطع ان تستلقي حتى تخف تلك الاصوات المزعجة ... بدأت تشعر بدقات قلبها ترتفع بهدوء ... فالرصاصات أصبحت كطوق يلف القرية بقوة... وقفت بخوف وشبكت أصابعها ثم غطت بها وجهها لتغرق في التفكير بأمر أخر... فهي كانت تظن أن

الخوف غادرها منذ وقت طويل وقد نسيته ورائها مع عمرها الصغير... فماذا حدث؟ خرجت بسرعة من غرفتها لتلقي بنفسها في حضن جدتها مرتعشة وخائفة فيما كانت تحاول جدتها أن تضمها بقوة لتمسح آثار الهلع في نفسها قائلة:

-ريم.. ما بك ياحبيبتي ؟ إنه أمر طبيعي ... ألم تعتادي عليه بعد؟

-انا خائفه يا جدتي فمنذ وقت طويل لم يدخل الاحتلال قريتنا بهذا العنف..

تنهدت الجدة بكثير من المعاني التي تحمل مأساة قديمة ثم ضحكت بسخرية وقالت:

-لعلهم يطاردون شبابا او يرغبون بقتل أحد ما..

وما أن نطقت الجدة بكلامها حتى انتفضت وهي تذكر أولئك الشباب الذين كانوا يحيطون بعصام قبل أيام كثيرة.. وكأنها قد أيقنت قتلهم جميعاً..

وعصام.. أيكون معهم؟أهوميت الآن؟ وكيف ستصبح الأيام من بعده؟هل علينا أن نضحي كثيراً لتسمو القيم خفاقة كالمطر في علو السحاب؟ وأنا!.. من سينقذني من خوفي وحزني ثانية؟ كيف لي أن أقهر تلك الظلمة وذاك الليل الطويل دونه؟.. فهو الذي أنساني كل الألوان الحزينة التي كانت تسكن قلبي وأزهاه بحضن وطني الذي هو أمي وأبي..

لم تستفق ريم إلا على صوت جدتها وهي تمسح بحزن تلك الدموع التي غطت وجهها ولم تكن تعرف سببا لها إلا الخوف الذي تألفه ريم منذ صغرها..

انتهت تلك الليلة العصيبة وأشرق الفجر.. كأن كثيراً من شوارع القرية قد أختفى.. وكأن الغبار يغطي ترابها المختلط بالمطر.. هذا مارأته عينا ريم التي لم تغفو للحظة واحدة تبحث فيها عما يخفف حزنها القاسي المخضب بالألم..

فالقرية ساكنة لا أثر فيها لأحد.. حتى أم عمر وأبا علي رغم أنهما يوقظان الفجر كل صباح..

هذا المنظر الأليم خطف قلبها وألقى به في مكان لاتعرف فيه معنى للفرح.. ولكن كيف يبدأ الحزين يومه؟ أي كلمات هي التي يمكن أن تنقله من هذا الحجم الهائل للألم؟ كانت ريم تبحث عن اجابة في كل مكان ..بدأتها من بيت عصام الساكن أمامها مباشرة..لم تكن تغادره بعينيها.. لعله يهمس لها بما حدث.. أو يطمئنها على عصام.. ذاك الشاب الذي لم تره منذ وقت طويل.. ولم تعرف سبب خوفها وحزنها المتراكم عليه..

إذن هدى.. هي وحدها التي يمكن لها أن تنقذ ريم ..لكن بيتها اذا قيس بخوف ريم فهو بعيد جداً.. لن تصل إليه حتى تكون قد غرقت في الموت.. كانت ريم في هذه الأثناء قد مشت خطوات كثيرة في القرية تبحث عما لاتعلم ..أثار الرصاص والدمار وكأنها أصبحت جزءاً من معالمها القديمة.. حتى سالم الذي لايخشى الإحتلال لقربه منهم كما يدعي الجميع لم يظهر بعد.. فما العمل؟

وكيف للقلب أن يهدأ دون لحظة أمل واحدة؟.. كم هي طويلة لحظات الخوف والقلق! ألن تكون لها نهاية كأعمارنا فندفنها للأبد وتصبح ذكرى كما هي أسماؤنا تماماً؟..

ها هو قد بدأ صباح القرية ..فصديقا ريم.. الشابان المقعدان قد ظهرا.. تنهدت وكأن روحاً جديدة سكنت جسدها.. فقد أشعراها بأن الألم نحن وحدنا من نضع له الزمان والمكان والنهاية.. بدأت ترقبهما بسعادة واضحة.. فلعل من بعدها ترى من تريد.. كانا يضحكان فيما يشيران الى الدمار الذي لحق بالقرية مساء أمس.. لو أننا جميعاً ننظر الى كل شيء بمنظار واحد ..بالتأكيد لما كان هناك في قاموس الكون شيئاً اسمه شجاعة وجبن.. كررت ريم النظر في أنحاء القرية.. لعلها تجد هدى أو حمزة أو العم أبو علي..

ولكن ماذا لو أهدانا الزمان لحظة سعادة صغيرة لنتوج بها قلوبنا المتعثرة من ألمه المر؟سنتنشق هواءاً عليلاً ليدخل ويتخلل الى أقدامنا صعوداً فيهوي بنا في فرح صغير يكبر ويكبر ومنها نفتح أفواهنا دوماً لنقبل السعادة المستحيلة..أهو حلم؟ذاك الصوت الذي سمعته ريم مقدما بضحكة بسيطة رغم رجولتها.. نظرت بسرعة فوجدت نفسها تقف مباشرة أمام الحياة وقد فتحت يداها ملقية عليها بعصام من حيث لا تدري..

كانت المفاجأة كبيرة.. أعادت ريم الى الفرح وكحلت عينيها بلون الحزن الجميل الذي لا نراه إلا حين نحول الأهات الى صوت العصافير عند الصباح.. ورغم أن عصام كان هادئاً.. في عينيه مالم تستطع الدهشة في عينيها من رؤيته.. يقف مخفياً كلتا يديه في جيبي معطفه ويبتسم كإشراقة هذا الفجر تماماً.. بقيت صامتة.. لم تعد تلقي بالاً لأن يستيقظ أحد في القرية.. فمن كانت تظن أن لن تراه أصبح هو وحده من يقف أمامهاعلى بعد خطوات قصيرة جداً كحبنا للوطن عند الرحيل.. كتمت أنفاسها وحاولت أن تتصنع اللامبالاة.. إلا أن تقدمه خطوتين زادها توتراً ورغبة في اكتفائها بالاطمئنان عليه ثم الرحيل.. مازالت ابتسامته تزين وجهه وهو يتحدث قائلاً:

-ماذا تفعلين في هذا الوقت المبكر من الصباح؟

لم تتغير ملامحها.. أخفضت نظراتها لتقاوم قوته التي تتنافس مع دقات قلبها..

-أهذا ما جاء من أجله؟ ألم يلمح الخوف والحزن في عيني؟أكان همه هذا السؤال فقط؟

كانت الأسئلة المزعجة تدق رأس ريم وهي تهم بالمغادرة لولا أن أوقفها عصام ثانية قبل أن يسمع جوابها وهو يقول:

-لم أرك منذ وقت طويل..

شعرت ريم للحظة أن ثمة من غطاها بمعطف دافيء كما تغطي الحمامة نفسها في عش الشتاء الناعم.. ومع ذلك لم تحرك ساكنا..وجهها غاضب.. عيناها باردتان.. أنفاسها بطيئة.. تداري كل ما في نفسها لتزرعه في القرية القديمة.. أما هو فعازف على أوتار الفجر بمهارة.. هاديء الى حد الاستفزاز.. ويحمل في قلبه الشوق الذي لم تشعر ريم به بعد..

ها هو العم أبو علي يشتم الإحتلال وهو يضرب كفاً بكف حسرة وحزناً على حال القرية.. وماجد يرقب الشوارع بسخط واضح.. لعلها أم عمر لم تظهر انفعالاً كعادتها.. المهم أن القرية استيقظت ككل صباح وهذا وحده كان كفيلاً بإسعاد ريم.. تلك الصغيرة التي كبرت في ثوان وهي تتقدم من عصام لتهمس له بقوة وضعف:

-خشيت في غيابك أن يفقد الجميع شاباً يحبونه كثيراً..

لم تلحظ ريم أن ثمة ما تغير على وجه عصام إلا أن ابتسامته اتسعت وامتلأت ثقة..فهي على يقين بأن تلك العبارة هي التي ستنهي الحديث بينهما رغم اشتياقها لأن يمتد لولا قواها التي بدأت تضعف وكلماتها التي خانتها أكثر من مرة ..لذا أشاحت وجهها لتمشي خطوة بالاتجاه المعاكس له.. ليوقفها صوته الذي غادر فجأة من الهدوء الى الحزم الذي تحبه المرأة وتبحث عنه قائلاً:

-وهل أنت من الجميع؟

أهذا هو الكون؟ وطن..ورجل عاشق.. أهو عيون خجولة تسجننا في لحظات؟ ..

كلمات عصام أسرت ريم تماماً وأصبحت غير قادرة على أن تفعل أو تقول شيئاً.. بل حتى خطوة واحدة لم تحسن أن تأتي بها.. كانت تدرك كم هي ضعيفة أمام أسئلته التي لم تستطع أن تجيب عنها ولو لمرة واحدة.. كل شيء كان أمامها في لحظات ..أيسخر منها؟ أم يعاتبها؟.. لعله يرغب بأن يسعدها.. فكلماتها رغم قلتها إلا أنها جاوزت المستحيل في الإجابة.. انتظرت كلماتها أن تجيب فلم تفعل.. حاولت أن تقول شيئاً لتمحو عاصفة التوتر التي غيرت لون وجهها وشكل شفتيها.. ماذا ستقول؟ فجوابها مزروع بغروب القرية الذي تحتفل فيه المشاعر دوماً لتبقى خجولة في تلك اللحظات طول الأمد..

-إنه أنت.. أرجوك ابق في عالمي لأسمع أجراس صوتك تملأ المكان ولأتذوق الحياة في لون عينيك.. لا تبتعد فأنا وحدي لك.. بعدك عني يقتلني ويمحو كل الأشياء الجميلة في حياتي ..

لعل هذا ما كانت ريم ستهمس به لذاك الشاب الذي كانت نصف ساعة كفيلة بأن تبعدها عنه مختفية بين أشجار الزيتون الكثيفة..

-هذه المرة الألف التي أسألك فيها عن حالك فلا تجيبين ياريم..

كانت ريم تستمع لكلمات صديقتها دون اهتمام.. فهي تحدثت مطولاً حتى أزعجتها فخرجت عن صمتها وقالت:

-هدى أرجوكِ أنت وحدك من تكف عن أسألتي وأنا متوترة.. ولهذا جئتك..

ابتسمت هدى أخيراً وقد زينها الكبر بكلام صديقتها فردت قائلة:

-لكن توتركِ جميل.. من أين جئت به؟..

نظرت ريم الى صديقتها الشقية.. وكأن كلماتها أصابتها بالدهشة.. من أين علمت؟وماذا قرأت أيضاً في عينيها؟ هل فضحتها ملامحها الى هذه الدرجة؟

حاولت ريم أن تتدارك ما حصل فقالت متصنعة الهدوء:
-وماذا تعنيين بالتوتر الجميل؟
وقفت هدى واقتربت من صديقتها لتهمس في أذنها قائلة:
-هل أنت عاشقة؟
-لا أبداً..
أجابت ريم بسرعة وانفعال واضح مسايراً لبعض الغضب المتدفق من عينيها.. مما أضحك هدى كثيراً.. فقالت بسرعة ريم:
-أنت كاذبة يا صديقتي..
شعرت ريم للحظات أنها ستستسلم لكل ما تشعر به أمام صديقتها ..وللحظة أخرى رغبت بالغضب منها والخروج من بيتها دون عودة..

كانت أم عصام ترقب ولدها بإهتمام وشفقة وهي ترجوه تناول الطعام دون فائدة.. فقد أبدى أكثر من مرة عدم شعوره بالجوع وسط التهام حمزة لأكثر من نصف الطعام.. كانت ابتسامة عصام لاتفارقه وكذلك الحيرة التي ملأت عينيه.. وحبه لأمه التي اقترب منها مراراً ليداعبها ويبعد العتب عن نفسها.. قائلا:
-أمي لاتقلقي.. حين أشعر بالجوع سأتناول الطعام..
كانت الأم تبعد وجهها بين الحين والآخر لتستقطب محبة إبنها ورضوخه لأمرها.. فقالت مجيبة عليه بغضب يسير وجميل:
-أريد أن أعرف الآن وفي هذه اللحظة لماذا ترفض تناول الطعام؟..
وهنا تدخل حمزه والطعام يملأ بطنه وفمه قائلاً:
-لعله تناول الطعام في مكان آخر يا أمي..

ضحك عصام من كلام شقيقه ونظر إليه بإستفزاز ثم قال:

-لا ياأمي.. إنما.. قد أغضبت شخصا عزيزا علي وهذا ما يبعد عني الرغبة في الطعام

هزت الأم رأسها مستسلمة لرغبة ولدها بإبتسامة خفيفة فيما توقف حمزه عن طعامه ناظراً الى شقيقه بإستغراب قائلاً:

-شخص ما! اذا عرفت من يكون ستعطيني مفاتيح السيارة بلا ريب.. اتفقنا؟..

-لا.. لأنني لن أعطيك المفاتيح أبداً..

وقف حمزة واتجه ليغسل يديه ويعود متحمساً الى حديث شقيقه هامساً بصوت هاديء:

-لكنني أعرفها..

كلمة حمزة أوقفت عصام بسرعة وغضب فيما كان الإحراج بادياً عليه تماماً.. ضرب بيده طاولة الطعام وهو يصرخ قائلاً:

-تعرف من؟

ارتبك حمزة ورغب بأن يغير كل شيء في لحظات فقال مهدئاً من غضب شقيقه:

-أعرف أين مفاتيح السيارة.. لا تغضب ياأخي..

كان موقف حمزة مثيراً للضحك المتواصل رغم جو الشتاء المشحون بالألق دوماً ..

هذه الليلة أرقت ريم.. فكانت تقطف حينا تلك السعادة التي جمعتها اليوم مع عصام..وحينا تتنهد حزناً على حال جدتها المريضة.. تحول فيها أن تتذكر تلك اللحظات السعيدة القليلة في حياتها..أنها تكاد تعد على أنامل يدها الواحدة.. مع أمها حين كانت صغيرة تسكب الماء الساخن على جسدها

ليستحم بدفء ويركن على الفراش بهدوء.. ويد والدها حين كانت ترافقها ليملأ القرية بالطفولة البريئة..أما الآن فكل شيء قد غادر.. ذاك الحنان والدفء.. وذكريات الطفولة الجميلة دوماً.. فلم يبق إلا حضن جدتها وعيني عصام التي لا تعرف ماذا تخبيء لها؟..

ليلة أخرى وثالثة ثم رابعة مرت جميعها على ريم ولا تكاد تفرق بين الصباح فيها والليل كانت حال جدتها تسير أمورها فتنام على نومها وتستيقظ على صحوها.. وماذا بعد؟ لا يسلّيها إلاّ حضور هدى وبعض الأسئلة المتراكمة عن حال جدتها.. قد حفظت ريم الإجابة غيباً وأصبحت تلقنها للجميع..فالمطر مع الليل والمرض أمور مقيتة تشعرنا بضرورة الهرب مما نحن فيه.. رغم أن كلا منها على حدى حياة تغير أنفاسنا الى الهدوء والحب..

الشارع الممتد من القرية الى القرية المجاورة مستقيم يعلوه مرتفع يفصل بينهما.. وعلى طرفيه أشجار كثيفة وتراب ممزوج بلونين جميلين حين سقوط المطر.. ورغم أن المشي فيه مخيف في نير الإحتلال إلا أنها مغامرة جميلة تستحق المخاطرة.. هذا ماشعرت به ريم حين كانت تطلق يديها للمطر ليعانقها فيما كان شعرها المبلل مصدر سعادتها واحساسها أنها تفعل ما تحب.. ليس ثمة من معها إلاّ الهواء البارد والأرض المبللة وكذلك احساس صغير بمواجهة الصعوبات لتدفعها نحو نشوة النصر.. فهي لم ترغب بمغادرة قريتها أبداً الا أنها كانت تهم بصنع سعادة قصيرة ليكون أمرا لابأس به.. خاصة وأن ريم تعبت مع جدتها حتى تحسنت صحتها مجدداً..

ها هي في طريق عودتها وقد اكتشفت جمال القرية حين تشقها شمس الشتاء غروباً الى نصفين فيزهو أحدهما بلونها الأصفر والآخر بلون العتمة الهاديء.. كانت تبتسم.. فمن يظن أنه يملك العالم وهو لايملك شيئاً يكون الأقوى في نظر الجميع.. قد لمحت من يتقدم من بعيد.. لم تأبه.. مشت خطواتها ولكن بشيء من الحذر.. إنه..أيكون سالم؟ لعلها هدى؟.. لم تتضح المعالم بعد.. قد عرفت.. تنفست الصعداء وابتسمت بمشقة أمام إبتسامة ذاك الشاب المحبوب الذي تقدم إليها بسرعة.. إنه حمزة.. وقد قابلها بسرور ونظرات شقيق يحنو الى شقيقته التي تشاركه العمر نفسه..

-مساء الخير..

توقفت ريم أمام حمزة بثبات ومحبة لترد تحيته وتشاركه الحديث.. مقدمة رأسها الى الأمام لترفع شأنه قائلة:

-مساء النور..

-كيف حالك ياريم ؟وكيف صحة جدتك؟

تدفقت من عيني ريم الكثير من مشاعر الراحة التي تفتقدها بفقدان الحنان الى أسرة تضمها بحب وسرور.. نظرت الى الأرض قليلاً وهزت رأسها لتطمئن حمزة قائلة:

-انها بخير الآن.. صحتها أفضل من ذي قبل.. شكراً لك على..

لم تحسن ريم اتمام كلماتها التي قطعها صوت تخلل بينهما دون شعور منهما.. قائلاً:

-أنا آسف على المقاطعة. .

صوت عاتب.. فيه قليل من الغضب.. إنه عصام.. لم يعرفا كيف تدخل وهما يتحدثان بعمق انتقل الى الجدية والحرج..

فيما تدارك حمزة الموقف وقدم شقيقه بمرح قائلاً:

-أقدم لك شقيقي عصام..

ضحكت ريم بإبتسامة خجولة فيما كانت تسترق النظر قائلة:

-ومن لا يعرف عصام؟

كان عصام يستمع بشوق.. فيما داعب حمزة أنفه معرباً عن استمراره في الحديث عن شقيقه قائلاً:

-أخي عصام يدرس الهندسة.. إنه في السنة الثالثة.. وهو يرفض اعطائي مفاتيح السيارة لأركبها لمرة واحدة في حياتي ومع ذلك فأنا أحبه كثيراً..

تبادل الجميع الضحكات فيما تدخل عصام قائلاً:

-هل ترغبان أن أحضر السيارة لأوصلكما الى مكان ما؟..

هزّ الإثنان رأسيهما رافضين إقتراح عصام معللين ذلك بقصر المسافة فيما انسحب حمزه مسرعاً ليصل مكانه قبل حلول الظلام..

حاولت ريم أن تبحث عما يجب أن تفعله في لحظات كهذه.. فهي مبتلة من المطر بما يكفي رغم توقفه.. وخجلة مما يمكن أن يجمعها مع عصام في مكان هادىء ومنعزل كهذا.. لم ترفع عينيها.. بل مسحت قطرات المطر المكللة لجبينها بتوتر وهي ترقب حمزه الذي اختفى عن الناظر.. حاولت أمر دقات قلبها بالهدوء ليمر هذا الموقف بسلام.. تنحنحت قليلاً فيما صوت عصام وترها وهو يهمس قائلاً:

-تبدين مرهقة؟

استوعبت ريم ما يقوله عصام وهي مصممة على أن ترد على سؤاله ولو مرة واحدة.. فقد كانت كثيراً ما تخونها الشجاعة أمامه.. نظرت الى نفسها..

شعرت بالسخط لأن ثمة مالم يعجب عصام فيها.. رفعت رأسها ونظرت اليه قائلة:

-وغاضبة أيضاً..

تحرك الهواء بينهما ليزرع في أجسادهما البرد القارص ويوقظ الأشجار المعلنة عن عدم حاجتهما لشيء في الكون إلاّ البقاء أمام بعضهما بحب وشغف..

أشاحت كلمات ريم الستار عن قلب عصام العاشق الذي تقدم إليها وفي عينيه قفص مذهب ليضم فيه من يحب.. ثم قال:

-مِنَ الجميع؟

في لحظات فهمت ريم كل شيء.. فقد ذكرها عصام بأخر لقاء بينهما.. وهذا ما أزعجها وأشعرها بضرورة الإنسحاب.. مرت لحظات قصيرة قبل أن تخطو ريم مغادرة وسط حصار عصام لها بنظراته الممتلئة حباً.. كان يعلم تماماً ما يجول في نفسها من عتاب.. فاقترب ثانية منها وقال:

-أنا آسف.. كنت أمازحك فقط..

أوقفت ريم خطواتها وهي تشعر بالنصر دون أن تظهر ذلك على ملامحها..

نظرت الى عصام وقد لمحت شروقاً جديداً للشمس في عينيه ..تنفست بعمق والابتسامة تتقاسم على وجهيهما.. لتسجل أول هدف لها في مرمى السعادة ..

كان هذا يريح عصام ويجعله غنياً بقدرته على إسعاد تلك الفتاة التي إقترب منها كثيراً قبل أن تحاول الهروب مجدداً..ثم قال:

-يقول ماجد أن من السهل على الرجل أن يكره الإحتلال ويحب امرأة في نفس الوقت.. هل يبدو هذا صحيحا؟

استجمعت ريم قواها وكررت السؤال كثيراً لتحسن الإجابة عليه.. فكرت لبرهة امتدت قليلاً ثم قالت:

-لا أعرف.. هل يمكن للحب والكره أن يلتقيا؟

-أجل.. نقسم قلبنا الى نصفين.. فيدفعنا العشق الى أن نكره بعنف .. ويدفعنا الكره الى العشق بنهم أكبر.. وقد حدث هذا معي ذات مرة..

شعرت ريم أن كلمات عصام قد أدمتها وشقت بقوة أفراحها ذات العمر القصير.. فأظهرت تصنع التماسك والقوة قائلة:

-وأين ذهبتْ؟

ضحكة عصام المرتفعة تشبه الى حد كبير تلك القشة التي تقصم الظهور دوماً دون إستئذان.. أشعرتها أنها محط سخرية لنظراته وكلماته التي تركتها مبتعدة عن صاحبها خطوات تحسن قطرات المطر عدها ..وفي أخرها وقف عصام أمام ريم مباشرة وهي تداري إنزعاجها وغضبها وكأنه يرغب بمحو كل شيء في ثوان وهو يخفض صوته قائلاً:

-من هي؟ حبيبتي؟ إنها تقف الآن أمام عيني ويكتحل قلبي برؤيتها في هذه اللحظات..

أعوام كثيرة ..وسنوات طويلة مرت حتى جاد الزمان على قلب ريم بالحب.. فقد نسيت المعنى الحقيقي للسعادة لأنها تعلوها بقمة مرتفعة عنها.. لكنها أسيرة لا تحسن النظر الى عينيه ولا حتى الحراك خطوة واحدة.. هي الآن تمتلك كل شيء لكنها عاجزة عن التصرف فيها.. فقد أعادت لها الدنيا أمها وأبيها وشقيقها ووطنها الضائع.. كان عصام يرمقها وقد هزتها المفاجأة وأخجلتها.. انتظر دقائق طويلة وهو يرقب عينيها الخجلتين ووجهها المرتبك وقدميها العاجزتين.. ثم أخذ بأطراف أناملها دون أن يقول شيئا.ً فما كانت تنطق بها أطرافه كان أجمل من كل حديث..

حين تأخذنا لحظات الفرح فتصبح زادنا وتنسينا كل شيء سواها.. نكون قد عشقنا لنصبح نحن الأجمل والأروع في هذا الكون.. كانت ريم ترقب بخجل صغير وفرح كبير كل شيء فيها.. عيناها.. يدها التي سكنت يد من تحب للحظات..حتى دقات قلبها البعيدة عنها.. كم هو جميل ذاك الشعور الذي يوحدنا مع من نحب فيجعلنا سواء.. مع مشاعر ممتلئة بالحب المتدفق الذي لا يرويه إلاّ اللقيا..

هي ثلاثة أيام مرت على آخر لقاء بينها وبين عصام.. استطاعت فيها أن تسترد أنفاسها وقوتها لتصبح قادرة بأقل حال على عينيه العاشقتين.. هل كان هذا صدقاً؟ لا.. فهي ما أن اجتمعت معه عند أبي علي الى جانب ماجد

وهدى.. حتى تبعثرت كل ما حاولت جمعه في تلك الأيام الثلاث.. فقد كانت ابتسامة عاشقة منه كافية بأن تلصقها بالحائط لتصبح معه جزءاً واحداً..
حاولت هدى أن تغير كل شيء فاقتربت من والدها مداعبة له قائلة:
-أبي.. هل تملك وردة يمكن أن نهديها لإثنين دفعة واحدة؟

أسهم أبو علي بالتفكير قليلاً فيما اقتطف عصام وماجد ضحكة شقية أثارت ابتسامة ريم التي كانت تحاول جاهدة نفض التوتر عنها والخجل رغم مساعدة عصام لها بعدم النظر اليها على شوقه وحنينه.. نظر أبو علي الى هدى بإستخفاف وقال بصرامة:
-هل أنت غبية يا هدى.. من أين سآتي لك بهذه الوردة؟..
تدفقت ضحكة هدى وهي تشتم بعض الأزهار المحيطة بها ثم قالت:
-ولكن يا أبي كيف لنا أن نرضي العشاق؟
وهنا تدخل ماجد ليرد على شقيقته قائلاً:
-وما شأنكِ أنتِ؟
قلة تلك اللحظات الجميلة في الشتاء البارد التي تجمع بين الأحبة.. لولا الأرق الذي يمكن أن يزعج الأحباب بين لحظة وأخرى ..وهذا ما كان.. حين كانت الإبتسامة تزين وجوه الجميع قبل دخول سالم بهدوئه وعنفوانه ملقياً التحية على الجميع.. نظرة واحدة كانت تكفي لأن تزعج عصام وتغير حاله فيما كانت ريم تحاول تدارك هذا الموقف.. لم يستطع أحد الإنسحاب.. حاول عصام حماية ريم بنظرات خاطفة اليها من سالم وما جاء به.. ابتسم أبو علي بكبرياء وقال:
-يالهذا اليوم الجميل.. فقد أعدتموني الى شبابي بوجودكم جميعاً حولي..

لم تكن ثمة إبتسامة صادقة من أحد.. وخاصة حين اقترب سالم وعيناه تبرقان بالنظر الى ريم التي استعدت للخروج لولا صوت سالم المرتفع وهو يوجه كلامه لأبي علي قائلاً:

-بل إنك عدت شباباً لأن أجمل فتيات القرية في محلك ياعمي..

كم كانت كلمات سالم قاسية.. فقد أغضبت عصام الى حد أن لم يستطع التقاط أنفاسه.. فخرج مستأذناً قبل أن يكتشف أحد كم الغضب الهائل في عينيه وقلبه..

هي بضع دقائق وكانت ريم تلحق به.. حاولت أن تبحث عنه بعينيها دفعة واحدة وبسرعة لكن غضبه كان أسرع من خطواتها فاستيقنت أنه عند شجر الزيتون الذي يشهد لقائهما دوماً.. لم تكن ولو لدقيقة تظن أن أول لقاء بينهما سيكون جافاً كما هو الآن.. وهي ترى عصام يصارع القهر والغيرة فيما نادته أكثر من مرة دون أن يستجيب ..لم تكن ترغب بأن تصل الى شعورها بأنها السبب في غضبه منها.. فلماذا لا يستجيب إذن؟ انتظرت قليلاً بعد أن جمعت شعرها في يدها لترده الى الوراء في شعور بسيط بالأسى ..كانت هذه اللحظات خانقة وهي تنتظر من عصام إجابتها.. مشت خطوات قبل أن تنظر اليه للمرة الأخيرة وهو يشيح بوجهه قائلة:

-أنا لا أجد مبرراً لكل هذا الغضب..

استفزت كلماتها عصام وقد نظر اليها بقسوة فيما شعرت أنها أخطأت بالتعبير عما تريد.. اقترب منها وصرخ بوجهها قائلاً:

-حقاً!.. ألا تجدي مبرراً لغضبي؟.. فلماذا لحقتي بي إذن؟.. إذهبي اليه ليحيطك بكلماته الجميلة..

حتى عصام شعر أنه قال ما لا ينبغي بعد أن رأى ريم تنظر إليه بألم وهي ترد عليه قائلة:
-أنا لم أقصد مافهمته.. بل قصدت ألامبرر للغضب مني.. فأنا تركته ولم أقل له كلمة واحدة.. بل لحقت بك و..

على الرغم من نظرات الهدوء التي بدأت تسيطر على عصام إلا أن هذا لم يكن كافياً لريم أن تبقى واقفة تبرر ما لا يبرر فاستدارت عائدة تحمل حزناً وعتباً على من تحب.. فيما هو وقف أمامها متسلحاً بعشقه المنسدل عليها.. يحاول ارضائها بكل ما أوتي من حب وهو يقول:
-أنا آسف ياريم.. لا أحد يعلم كم أكره سالم وكم أتوق لأن يختفي عن وجه الأرض في ثوان..

كانت ريم تستمع لكلمات عصام وكأنها كرات نارية تخرج من جوفه فيشعر بالراحة.. لكنها لم تحسن تمثيل دور الرضى رغم هدوء عصام.. فقد هزت رأسها وهي تخبيء شفتها العليا لتكتم ما تشعر به.. ثم تحركت لتعلن رحيلها.. لم يكن من السهل عليها أن تنجو من عصام بحبه وكلماته وخوفه عليها.. فقد ابتسم أخيراً وهو يمنعها من التحرك يميناً أو يساراً ثم قال بحب:
-لن أتركك أبداً حتى أرى عينيك ووجهك يتألقان بالرضى..
رفعت ريم رأسها وتركت الفرصة له بأن يتحدث بما ترغب..وهذا ما لمحه في عينيها قائلاً:
-هل ترغبين بأن أعتذر لك حتى الصباح؟
أخيراً ابتسمت ريم وهي تشعر بالخجل يسكنها وكأن قلبها أصبح مكاناً تهاجر إليه الطيور..

كان هناك ما يجب أن تقوله.. نظرت الى الأرض مرة وقالت بصوت جاد:
-لقد عاقبتني بما لم أفعل.. ليس ذنب بأن تصرخ علي وتخاصمني..
لم تغادر الإبتسامة والنظرات الجميلة عصام وهو يستمع لكلام ريم قائلاً:
-أنا لم أصرخ عليك.. ولكن أنت وحدك من أستطيع اخباره بشعوري نحو سالم وكرهي له.. فتحمليني قليلاً..

كانت هذه آخر الكلمات التي تحدث فيها عصام وريم عن سالم .. ذاك الشاب الذي يخبيء لهما ما لم يكن في الحسبان..أي شيء ننتظر من الحب حين يغير ملامحنا وأنفاسنا وتلك القلوب الممتلئة به؟.. ماذا بقي لنا من الماضي؟ كيف يمكن له أن يصبح ماضينا وحاضرنا وما يسكن فينا؟ ألهذا هو الأقوى.. بل والأجمل.. ولهذا نحن الأضعف.. وما يسكننا من حزن لأجله هو الأحلى ..كثيرة تلك الأيام التي ألغاها من حياتنا بإرادتنا ورغبتنا لأن نبدأ من حيث بدأ هو..
كل ما في القرية هادىء.. إلا قلب ريم وعصام حين يتواعدا باللقاء مرة في نهاية الأسبوع.. تتواعد معهما الأشجار والسماء والأرض ويختلف بسببهما المطر والعصافير فإن غاب أحدهما جاء الآخر.. لم يكن يستطيعا البقاء لأكثر من ساعة واحدة مالم تجد عليهما الأيام بلقائهما صدفة في أحد شوارع القرية..
مرّ عام على دخول ريم وهدى وكذلك حمزة الجامعة وبقي عام لينهي عصام دراسته.. لم يعد هناك ما يكدر صفو ريم إلا خوفها الدائم على عصام.. فهو نشيط في مقاومة الإحتلال وفنان في التخطيط للإيقاع بهم.. ورغم خوضه كثيراً في هذا الموضوع معها دون فائدة.. فهي تقضي جل وقتها في مصارعة الخوف والقلق وهو يقضي كل وقته في اقتلاع الخوف الساكن فيها منذ الطفولة من الإحتلال.. لكن هذه المرة كان الأمر مختلفاً للغاية.. فقد مرّ

الأسبوع الأول وكذلك الثاني.. لم يأت عصام على موعده ولم تره صدفه أو تسمع عنه أي خبر.. شعرت ريم أنها النهاية وان ساعة لقائها بما تخشى قد حلّت.. فما العمل؟ لم تشفع لها الجامعة برؤيته فهي العطلة تفرض نفسها لشهرين متتابعين.. ولم تستطع أن تسأل عنه لأن الأمر لم يكن بهذه السهولة.. حتى هدى ما سمعت امرا يقلق بشأنه رغم محاولاتها المميتة بالسؤال عنه من أخيها العنيد ماجد.. على الرغم من أن مبرر هدى مقنع بأن لو كان هناك ما يخيف لانتشر الخبر بسرعة.. ولكن ريم لم تكن تسمع إلاّ نداء قلبها.. فقد استسلمت أخيراً للقلق والتوتر.. شعرت أن كل شيء اختفى من حولها.. وان ليس هناك مايستحق أن تبقى لأجله في هذا الكون..

ها هو الأسبوع الثالث قد حل.. وهي مازالت تجلس متكئة على شجرة الزيتون لأكثر من ساعة تنتظر.. وقد اقتنعت تماماً أن الحزن كالبحر له لون آخر حين نصل إليه.. وأن لم يعد هناك أهمية لأن تعد دقات قلبها التي لم تعد تشعر بها برغم جمال الصيف قبل الغروب ورائحته التي تغير كل الأشياء بفرح.. إلا أن المجروح لا قيمة للأشياء عنده.

-مساء الخير..

كم هو هاديء هذا الصوت.. يحمل حناناً لا يكون إلاّ من عصام لريم فقط.. فتحت ريم عينيها بسرعة لتبقيهما بدهشة جميلة وقتاً لم تشعر به.. فهو عصام.. وهي لا تحلم.. سكن الغضب والفرح والعتب والشوق كله في قلبها فانتفضت واقفة لتنفي أنها في حلم جميل.. بينما كان عصام يقترب منها سعيداً ومشتاقاً وفيه شيء من الندم على ما سببه لريم مما يعلم ..

لم تجب.. بل كانت نظراتها الحادة وملامحها الحزينة تسيطر على الموقف تماماً.. مع أن عصام بقي على حاله يقترب بخطى ثابتة وهو يقول:

-أرغب الآن بأن أضم كل الأشياء الجميلة في العالم وأصنع منها إكليلاً يغطي مساحات الحزن الساكنة في جسدك..

أحياناً كثيرة تبقى الأشياء بصمتها حتى وان إتشحت بغضب أو حزن.. وهذا مااقتنعت به ريم تماماً وهي تقف بمواجهة عصام بعد أيام طويلة من اليأس القاتل.. لم يكن وقوفه كافياً لمحو كل تلك اللحظات بسرعة.. ولم تكن قادرة على أن تفعل شيئاً إلاّ التحديق المستمر لإبتلاع شعورها بالخسارة والنهاية في آن واحد.. حاولت أن تقول ما يجول في نفسها ولكن كيف يمكن أن نحول البركان المتأجج الى هدوء ساكن في لحظات؟.. صمتت لتحتفظ بكل نهاية يمكن أن ينتهي بهما لقائهما هذه الليلة ونظرت الى الأرض مراراً والى عصام أكثر ..

حين كان يقترب عالماً بما يجول في خاطرها قائلاً :

-أعلم تماماً ما سببته لك من متاعب.. إلا أنني كنت مضطراً للغياب.. وإلا فقدتني الى الابد..

تنفست ريم بصوت سمعه عصام بوضوح وهي تكتم انفعالها من الظهور كي لا تخسر كل شيء في لحظات.. أغمضت عينيها لتنسدل دموعها هادئه منها وهي تقف أمامه تقول بصوت حذروجاد:

-وعدتني باللقاء فجئت بعد ثلاثة أسابيع وحين جئت تأخرت ساعتين وبعد

قدومك بدأت تحدثني عن الغياب والحزن والقتل.. وكأنك تستكثر علي رؤيتك مرّة في الأسبوع.. كان بإمكانك أن تختصر كل ما مضى لتخبرني أنك لا ترغب برؤيتي أبداً ..

كانت تعلم ريم بأنها تتفوه بغير الحقيقة.. فعينا عصام المفتوحتين بدهشة استهجنت قولها ..فيما كانت تنطلق مسرعة غير آبهة أبداً بنداء عصام لها بشغف..

الى جانب المرض الذي احتل جسد ريم.. إلا أن اللذة كانت تسكنه.. فقد شعرت بما فقدته منذ وقت طويل من اهتمام الجميع من حولها دفعة واحدة.. وأهم ماتكنه في صدرها قلق عصام الذي أشعرتها به هدى كل زيارة لها.. فيما كانت تتصنع عدم الإهتمام والسخرية من خوفه.. حاولت هدى طويلاً أن تقنعها بعذر عصام في الغياب إلا أنها كانت تتذرع بالألم لتصمت هدى عن محاولاتها..

أيام مضت وما زالت ريم على حالها..منهكة وتشعر بالأسى.. كانت هدى لا تتركها إلا قليلاً.. تقوم بشأنها لتمكث متجاذبة معها أطراف الحديث.. فقد جلست الى جانب صديقتها وهي تحاول كسر عنادها وتصلب رأيها فقالت:

-أعتقد أن هذا الصباح جميل..

هزت ريم رأسها وهي تخفي ابتسامة تظهر ما فيها نحو صديقتها.. فردت بعد أن جلست تداعب خصلات شعرها بمرح قائلة:

- وأجمل مافيه مداعبة الشمس لأشجار الصباح فتتحرك متلألئة بإختيال ..

نظرت هدى الى ريم وهي ضجرة من لامبالاتها تجاه عصام..فصمتت حتى ضحكت ريم بجاذبية واضحة ..فيما كانتا تحدقان ببعضهما بإهتمام..

إتأكت ريم على كرسيها بحنان وقالت بجدية متسائلة:

-عجيب أمرك ياهدى.. لقد قلت لي قبلاً أن الرجال كلهم سيئون.. فلماذا تدافعين عن عصام بهذه القوة؟

شبكت هدى كلتا يديها بنفاذ صبر أمام تساؤلات ريم ثم قالت:

-لأنه غاب لسبب...

-مهما كان سبب غيابه.. فكما أقلقني عليه ثلاثة أسابيع دون أن أعلم شيئاً عنه.. فمن حقي أن يقلق علي المدة نفسها..

تأففت هدى غاضبة من حديث ريم المزعج وقالت بإستغراب:

-أهو إنتقام ياريم؟ إنه الحب يا صديقتي.. ألا تفهمين؟

كثير من المشاعر المحزنة سكنت قلب ريم وهي تستمع لكلام صديقتها الذي

كان أشبه بصفعة قوية أفقدتها توازنها وعنادها لتغير كل ما قررته ذاك اليوم..

يداعبنا الوطن.. ويسرد لنا حكايات لا نمل سماعها عند الصباح مع قطرات الندى التي تتزين بها نوافذنا معلنة العشق الى الأبد.. فقد أنهت ريم ليلة شاقة من الشوق والندم.. واستقبلت صباحاً أسكنت فيه كل أعمالها بسرعة ليحل منتصف اليوم مستأذنة جدتها في الخروج.. فلقيت الرفض لأول مرة في حياتها معللة جدتها ذلك بتعبها وحاجتها إليها.. وعلى الرغم من أنها لم تلحظ ماهو جديد بشأن جدتها إلا أنها ماانفكت عن اقناعها بالخروج ولو لساعة دون فائدة.. جلست وفي داخلها غضب وألم واستغراب من فعل الجدة تجاهها.. انتظرت هدى طويلاً فلم تأت.. وقفت ومشت خطوات كثيرة في البيت لعلها تنسى ماقامت به من حماقات في الأيام الماضية وتنسى اصرار جدتها على عدم الخروج.. كانت رغبتها في الغضب عارمة.. تود لو ترى هدى أو تتحدث اليها لتتجاوز الأرق الذي لا يغادر طيات وجهها.. كان هذا اليوم طويلاً.. فيه وعدت الجدة ريم بالخروج مبكراً لليوم التالي ..

بدأت الشمس بلملمة أشعتها لتتوج القمر نوراً للسماء.. لم ينتظر أحد زائراً إلاّ هدى.. التي كانت تعرف ريم تماماً صوت طرقاتها ..أسرعت متهللة بإستقبالها لتكبت أنفاسها ودقات قلبها التي أعلنت لها قدوم الأحباب ..ولتقف عاجزة أمام عصام الذي كان يقف لأول مرة أمام بيتها بثقة وحب.. تحول قلب ريم الى عاصفة من العشق والسعادة..صكت على شفتيها وشدت أناملها ليزهو وجهها تألقاً ..فيما كان عصام يبتسم بعينين عميقتين يعلنان حبهما المتدفق على ريم حتى يصل الى عنان السماء..

لا أحد يعلم كم هي اللحظات التي تفصل بين العاشقين.. أهي طويلة كالأزل؟ أم قصيرة كعمر الورود؟ في أي منها هي لحظات مليئة بوجود الجسدين وغياب الروحين الى عالم لا يصل أحد إليه إلاهما..

لم تفق ريم وعصام إلا على صوت الجدة وهي تقف مرحبة بالضيوف.. أي ضيوف؟ ريم لم تستوعب رؤية أحد إلا عصام الذي قدم والدته والعم أبو علي.. ثم هدى وحمزة.. شعرت بكثير من الخجل يسحقها ويبعثر أفعالها.. فالتزمت بالصمت المفتعل لترحب كذلك بهم.. جلس الجميع وريم لم تجرؤ على النظر الى أحد.. فهي لا تعلم ماذا يحصل من حولها.. لولا العم أبو علي الذي ضحك طويلا مع الجدة قبل أن يوجه نظره الى ريم قائلاً:

-نحن جئنا اليوم يا ريم لنطمئن على سلامتك أولاً.. ولنكمل مابدأناه مع الجدة وشقيقك وليد ثانيا..

رفعت رأسها لتنظر الى الجميع دفعة واحدة.. هي لا تعلم شيئا.. فعينا هدى تضحكان بخبث.. وعصام يلفه السرور والحب .. حمزه كان سعيدا وكذلك والدته.. أعادت وجهها المندهش ثانية الى أبي علي الذي قال مجددا:

-لقد تحدث عصام مع شقيقك طالبا منه الزواج بك..

زواج! كانت هذه الكلمة هي الأبعد عن ذهن ريم.. فقد رغبت بأن يوقظها أحد من هذا المنام..ولكن!.. حاولت كثيرا أن تحرك رأسها لتستفيق.. لكنه لم يكن حلما.. وهذا ما أكده عصام حين أكمل قائلا:

-قد وافق وليد وكذلك الجدة شريطة موافقتك أنت..

كثير من الكلمات كان يخفيها عصام بين عينيه وخلف قلبه.. كأنه أخذ بيد ريم ورفعها الى القمر المنير بينهما.. لم تحسن هي في تلك اللحظات إلا خفض رأسها واخفاء عينيها كي تتجنب كل المشاعر التي لا تعرف كيف ترتبها ذاك المساء.. هو وحده حضن الجدة الذي ضمها فكان عالمها الذي بدأ منذ إعلان التقائها بعصام الى الأبد.. وقد سكنتها نسائم أشبه بتلك التي ينتهي بها يوم صيفي بارد.. حين يهدينا الحب شعورا بأن الأشياء كلها بدأت من حيث انتهت الذكريات..

كان يعلم حمزه تماما أن شقيقه لم ينم بعد..وكذا ريم.. فتسلل اليه ليعبث بساعة الفرح التي تلف قلبه وضلوعه العاشقة.. اتكأ بكلتي يديه على تلك الطاولة التي تجمعه مع شقيقه..

ثم ابتسم بإزعاجه المعتاد وهمس قائلا:

-لم أسمع قط عن شاب يرضي حبيبته كما فعلت أنت..تنبه عصام من غفلته برهة وهو ينظر الى شقيقه المزعج وكلماته الجميلة.. ثم رد قائلا:

-لقد أصبحت خطيبتي الآن..

-وحبيبتك..

-وكل شيء جميل في دنياي..

استغل حمزة لحظات السعادة ليجلس على كرسي بجانب شقيقه وهو يضحك مسرورا ثم قال:

-وبهذه المناسبة عليك اعطائي مفاتيح السيارة ليوم واحد فقط..

أوقفت كلمات حمزه عصام مخفيا ابتسامة جادة ثم اتجه الى سريره معلنا رفضه التام لكل ما قاله شقيقه الذي يحبه كثيرا..

بماذا يمكن أن نسمي الحب؟ أهو الوجه الآخر للحياة؟ أم زهرة تفرقها أو اجتماعها هي الأجمل؟ لعلها نبضات القلب التي لا نملكها الا عند سكناها في القلب.. لتعلمنا أن العاشق مازال على قيد الحياة.. كانت تتنافس السعادة في أيام ريم.. فلم يبق عندها معنى للحزن.. بل مسحت ملامحه من عينيها اللتين لم تنتظرا إلا ذاك الشاب الذي كلل أيامها بلون الأرجوان ونفحة البحر حين تسطع عليه شمس الصباح وندى الآفاق..

كانت أنامل ريم تداعب بيت عصام بفرح وخجل.. فيما انتظر الزمن دقائق خمسة ليفتح عصام وقد ارتسمت على محياه ابتسامة لا تحمل لقلب ريم الا معنى واحد.. اتكأت على الباب تضم يديها من خلفها وهي تقول:
-أعلم أنني أزعجك في آخر امتحان عندك.. ولكني سأحتسي الشاي معك ثم أمضي بسرعة..

أسرعت يد عصام لتمسك بيد من تحب وتدخلها بسرعة الى البيت دون اعتبار لأي سبب يجمعهما.. وقفت ريم أمام حمزه ووالدة عصام وقد زان الخجل وجهها رغم السعادة التي بدت عليهما.. كان صباحا منه يشتم الجميع رائحة الربيع التي تملأ شوارع القرية وصباحها المشرق.. حاولت لأكثر من مرة الاستئذان دون جدوى.. فقد كانت تلاقي الرفض المطلق من الأحباب الثلاثة.. بررت موقفها مرارا من أنها لا ترغب بإزعاج عصام..فهو الامتحان الاخير ثم يتخرج.. الا أن عصام كان يعلل رفضه بدراسته المتواصلة وذكاءه المتوقد.. كانت تلك الخيوط التي تجمعهما من الحب صعبة.. لا يستطيع أحد فهمها ما لم يكن عاشقا.. حتى وان لم تسنح لهما الفرصة للحديث منفردين بعد.. هاقد سنحت.. فلم يكن من عصام إلا أن أسكن وجهه أمام وجه من يحب ليصمتا

دقائق أعقبتها ابتسامة واحدة قسماها على ثغرين لتنعقد فرحة صغيرة تكبر مع ثواني الزمان الذي لا يكف عن تغيير الأحوال.. رفع عصام يده وضمها ليدفع بها وجه ريم الى حيث ملامح وجهه تتضح أكثر ثم قال:

أخفضت ريم رأسها خجلة سعيدة بغزل عصام المبطن وهزت رأسها موافقة على ما قال.. إلا أن هذا الخجل زاده رغبة في الحب اكثر فهمس بدفء وفرح قائلا :

-وهل ستزينين هذا البيت عما قريب يا حبيبتي؟

كانت ريم ما تزال تحاول مداراة ارتباكها الواضح لتبدأ من حيث انتهى عصام الذي كان وجوده يشكل عالما مختلفا من الحب لم تكن قد اكتشفته حتى ذاك الوقت..فخففت من توترها وابتسمت قائلة:

-وحين نتزوج.. هل ستحرص على الاستيقاظ مبكرا من أجلي؟

لم تتغير ملامح عصام وهو يستمع لكلام حبيبته الجميلة.. فقد وصل الى قمة الحب معها وهو يحرك رأسه موافقا لتقترب ريم منه أكثر وهي تقول:

-فإن لم تفعل؟

اتسعت ابتسامة عصام وهو ينظر الى تلك الفتاة التي رسمت طريقا جديدا لقلبه وقال:

-علينا أن نفرض أنا وانت عقوبات رادعة لكل من تسول له نفسه بتخفيف نسبة حبه ولو قليلا.. ما رأيك؟

هذه اللحظات التي جمعت بين ريم وعصام لأبعد حد هي الاجمل وهما ينتظران تنفيذ الحكم على أحدهما يوما ما في حين قال عصام:

-نحكم عليه بأن يقول ألف مرة أني أحبك ..

أنهى عصام كلامه وهو يرى الموافقة من وجه ريم الذي لامسه لفترة طويلة..

ماذا يفعل العشق في ظل الاحتلال؟ هذا مالا يعلمه أحد.. وكيف يمكن أن يرتب العاشق قلبه تحت وطأة ظلم المحتلين؟ وهذا مالا يخمنه الا المتنسم لرائحة الوطن حين يمتزج بوجه من نحب كل صباح..

قد تخرج عصام واصبحت ريم في السن الثالثة.. تغيرت معالم حياتها تماما حتى كادت تطلق على نفسها اسما آخر.. كانت تنتظر الحب والسعادة والزمن المنبسط تحت رغباتها.. فأهداها الزمن حزنا وأرقا وهما لا ينتهي في ذاك الصباح الذي أشرق على صوت طرقات البيت بقوة وخوف لتقفز مسرعة تواكب الذكريات والحاضر المطل على مستقبل قد عرفه الجميع حين عم أرجاء القرية نبأ اعتقال عصام المفجع..

من الفرح الى الحزن ومن الضوء الى العتمة ومن صوت الوطن الى صوت السجان حين يكتشف في نهاية المطاف أن غرفة السجن هي المكان الذي فيه يحسن العيش مجددا.. دون قسوة التحقيق وظلم المحقق ..كان يعلم عصام تماما ما كان ينتظره وهو يبدأ حياة جديدة اسمها الموت البطيء.. بل ان الموت هو نسائم صيف منعشة أمامها.. ماكان يحزنه أنه لن يستطيع حتى التفكير بمن يحب.. فمجرد التفكير وحده سيضعفه ويهز قواه.. إذن لن يهنأ الا بتزيين الوطن وحده في قلبه وعقله..

الظلمة تقسو على عصام.. غرفة المحقق الكريهة التي كانت معبرا لقتل كل المعاني وأصغر مانحبه ونريده.. فالبقاء فيها وتحت ضرب المحقق أنسى عصام لحظات الفرح التي مرت بخياله ذات يوم..هذه المعادلة وتلك المواجهة بين تمني الموت على الموت المصطنع هي نقطة المقاومة الحقيقية.. البكاء فيها أمر يستطيع التشبث فيها كالطفل الصغير حين يحصل على مايريد.. من هنا..

من حيث كبلت أيدي عصام وضمت خلف كرسي حديدي صلب.. وقد منع من النوم لايام نسي كم عددها وما إسمها.. يالهذا الألم الذي لا ينتهي!.. قد كان يبحث فيه عن التقاط الموت بكل أطيافه.. حتى جاءت تلك الدقيقة التي فيها سيلتقي مع ذاك المحقق الذي حفظ عصام شكله تماما كما نحفظ شكل الكلب رغم أننا نكرهه.. للمرة العاشرة يلتقيان.. يجلس فيها عصام بألم وتعب وحزن.. يحاول أن يتذكر اخر مرة نام فيها.. لعله ينعم بتلك الذكرى.. جلس فيما كان يشيح بوجهه عن المحقق الذي ملأته ابتسامة وهو يطرق بقلمه على الطاولة ممعنا النظر فيه.. لا يعنيه الزمن ولا الظلمة ولا ما يراه امامه من إنسان يموت لأنه يدافع عما يحب.. نصف ساعة من العذاب النفسي مرت على عصام وهو يترقب أي كلمة من المحقق لينتهي هذا اللقاء المميت..

صوت ضحكته كانت تملأ الغرفة المظلمة.. وقف وجلس مرارا ثم ركز نظره عليه وقال:

-ما رأيك ان نبدأ اليوم من النهاية يا عصام؟

هذه الكلمة لها ألف معنى حين يتلفظ بها المحتل.. وتحمل ألف حزن حين تصل الى أذني عصام.. والجواب الوحيد لها هو الموافقة التي يفرضها المحقق.. وهذا ما كان من عصام.. إسترخى المحقق ثانية مقلبا أوراقا كثيرة بين يديه ومسيطرا على الزمن الفاصل بينهما قائلا:

-هل تتمنى لو نسي الموت كل الناس وجاء لزيارتك؟

علم عصام تماما ما كان يريده المحقق منه.. فاستنشق الهواء الملوث في الغرفة بعمق ثم أخرج ما في جوفه من غضب ومقت.. فما زال الالم يحتل أنفاسه بل وسكن فيها فأصبحا شيئا واحدا.. بدأت ملامح المحقق تتغير ويتكشف وجهه عما يجول في صدره وهذا ما شعر به عصام حين تحداه بصمته.. إلا انه كان قد وصل الى اليقين بأن ما قاله المحقق هو الصواب فعلا..

كان حمزه يخفي ملامح الحزن والألم في طيات قلبه وهو ينظر الى والدته التي لم تكف عن البكاء منذ رحيل عصام.. رغم ان الامر كان معتادا عليه.. فكثير من شبان الوطن يسجنون ويقتلون.. لكن القهر حين يصل الى قلوبنا يتلون بألوان كثيرة لا نستطيع حتى أن نميزها.. وإن اشرقت الشمس كل يوم.. فلا يرى الحزين لونها ولا يسمع زقزقة العصافير حين تقفز حاملة الامل بلقاء الحبيب.. كم مرة سمع فيها حمزه صوت والدته؟ لم يعد يذكر فهي قليلة.. حاول كثيرا أن يخفف ألم امه ويعزيها بتلك اللحظة التي ستلتقي فيها مع عصام ولو بعد حين.. وكانت هذه من المرات التي لف فيها يديه حول رقبتها ثم قبلها بحنو لترفع بصرها وتمسح دموعها المتناثرة ثم تبادله القبلة وتجلسه جانبها قائلة:

-هاهي مفاتيح السيارة تستطيع أن تستعملها الان..

كانت كلمات الام لهيبا حرق صدر حمزه وهو يشيح بوجهه قائلا:

-لا حاجة لي بها ياأمي.. فأنا لن آخذها الا من أخي..

كان يوما حزينا كغيره.. انتهى ولم ينس احد ذاك الشاب الذي هو يتلألا الأن في مكان ما..

هذه هي الحياة.. تفرض نفسها بقوة علينا رغم آهاتنا وأحزاننا.. فقد شعرت ريم أن كل الايام التي مرت كانت كفيلة بأن تدهور صحتها وتنهي دموعها لتفكر في شكل الدنيا بعد غياب من تحب.. الجدة كانت ترقبها بأهتمام وهي على حالها.. تدفن رأسها بين يديها لتستسلم لأفكار لا تساوي حزنها على عصام.. نظرت اليها الجدة مرارا وقالت بصوت ضعيف:

-ريم.. ألن تكفي عن أحزانك يا ابنتي؟

رفعت ريم رأسها وفي قلبها مشاعر بالسخط على ما سببته لجدتها من ألم..
حاولت أن تقول بهدوء:
-كيف أكف عن حزني وسبب الفرح في حياتي مفقود يا جدتي؟..
تنهدت الجدة وهي تعلم انها تطلب المستحيل ثم قالت:
-يقولون أن السجون لا تبنى على ظهور السجناء يا حبيبتي ..وأنهم يخرجون ولو بعد زمن طويل ..

أعادت ريم رأسها الى الوراء وقد تغيرت ملامح وجهها لتعاودها مشاعر القهر والغضب ثانية ثم ضحكت باستهزاء وقالت:
-وما الفائدة يا جدتي.. قهي تأكل اعمارهم وتحرق آمالهم؟
هزت الجدة رأسها وقد توصلت الى طريق مسدود لإخراج ريم مما هي فيه..

ذاك السجن الضيق الذي لم يخرج عصام من غفلته وهو يحاول ان يستوعب كل شيء في لحظات.. فهو صغير الى درجة لا يتسع فيها لسكنى عشرة.. رغم ان الجالسين فيه يزيدون عن الخمسة عشر ..نافذته مقيتة تشبه وجه المحقق.. ترفق فيه الشمس كل صباح فتزوره لدقائق ثم تغادر وكأنها أغربت ذاك اليوم.. لا أحد ممن يسكنه يعرفه عصام.. رغم أنهم جميعا وقفوا تحية له حين دخل متعبا.. حزينا.. لا يعرف أبدا كيف يمكن أن يقضي فيه اربع سنوات كاملة بأيامها ودقائقها وثوانيها البائسة القاتلة.. تنهد بألم وحلق بعينيه على أرض السجن ولم يقل شيئا.. فهو على علم بأن أربع سنين كافية لأن ينتهي فيها أي حديث في الكون..

الضباب غطى كثيرا من شوارع القرية وبيوتها.. لكنه لم يحسن ان يمسح الأرهاق الذي أصبح جزءا من حياة ريم وهي تبعد وجهها كل صباح عن بيت عصام.. فهي تشعر بأنها يمكن أن ترى أي شيء في العالم الا هو.. هذا البيت الذي غادر فارسه لأربع سنين فلا يسمح لأحد بأن يراه أو يسمع صوته أو يعرف عنه شيئا إلا والدته التي قد يحنو عليها الاحتلال في كل عام مرة .. وحين تقابلتا كان وجه والدة عصام أشبه برحيل جماعي لطيور النورس عن بحرها..

مخلفا القهر والغضب وقلة الحيلة.. كم هو قاس هذا الزمان حين ينفض عن نفسه كل ألوان اليأس ويكللنا بها!.. لم تقل ريم أية كلمة تخفف الاحتقان بينهما بل كانت كل منهما تكابر على ما فيها وتمنع دمعة يمكن أن تودي بالأخرى.. تحركت الام ومشت الى ريم خطوات ثم قبلتها وهمست لها قائلة:

-نحن لم نفقد حبيبنا بعد يا ريم.. لا بد أن نراه يوما..

يوما !أي يوم هذا؟ كيف سيكون شكله؟ ما اسمه؟ أي ساعة فيه؟ يالك من يوم بعيد! ليس ثمة أفق لك.. هزت ريم رأسها لتعلن موافقتها على كل ما قيل ولكن على العلن فقط..

أشرف.. شاب في العشرين من عمره.. غريب الاطوار.. محكوم عليه بالسجن ثلاث سنين.. قضى منها عام.. وهو على الدوام صامت فإن تكلم احتج على كل شيء في الكون.. حتى أن عصام كان يستهجن كيف جمع بين تضحيته في سبيل وطنه وبين إحتجاجه على العالم بهذا الشكل ..

أبو محمود.. رجل في أواخر الاربعينات.. يغزو الشعر الأبيض رأسه منذ وقت طويل.. ومع ذلك هو خفيف الظل.. هاديء.. لا يمر يوم الا ويتحدث عن أولاده لساعات طويلة.. حتى طفله المنتظر بعد أشهر سبع.. إلا أن تعلقه بالسجن أمر مهم.. لانه يعتبره جزءا من وطنه الذي خسر كل شيء لأجله.. كثيرا ما كان عصام ينام ضاحكا على مدى التناقض الذي يجمع بين هذين الرجلين.. ومع أنه لم يخض في أي حديث مع أحد ولم يتحدث عن أي شيء إلا أن استماعه لكل هؤلاء الشباب كان مثيرا للاهتمام..

وكالعادة.. بدأ اليوم بصباح سجين لشباب في أعمار جميلة كالازهار.. ومع أن لا فرق بين شروق الشمس وغروبها إلا أن الصباح له رائحة تعيد بناء الحياة من جديد.. الخمسة عشر سجينا كانوا يبدأون يومهم بإنتظاره وينهونه بنفس المشاعر..

كانت الصدمة ما زالت تملأ جوارح عصام.. التحقيق الذي استمر شهرين كاملين نسي فيهما كل الاشياء حتى التافهة منها.. الا أن تحرك عينيه في السجن يجعله في استعداد لترقب اللحظة التي يمكن أن تعيده الى الحياة من جديد خاصة وسط محاولات أبي محمود بالحديث معه مبتسما بإستمرار.. وهذا اليوم كغيره جلس أبو محمود الى جانب عصام بعد تناول ما يسمى بوجبة افطار.. نظر الى عصام بتمعن ثم قال:

-أنت خاطب يابني؟..

كأن كثيرا من قطرات المطر تساقطت على وجه عصام بغزارة تلك اللحظة.. فانتفض جسده بألم وتذكر تلك الحبيبة.. التي حاول جهده طويلا كي ينساها حتى لا يضعف فتنتهي قوته في لحظات.. الا أنه إمتص ألمه وهز رأسه بالايجاب ليرى إبتسامة مشرقة تحمل فرحة صغيرة في طيات وجه ابي محمود الذي عبر عن سعادته قائلا:

- هذا جميل.. فحين ينتظرنا ما نحب.. نمني انفسنا بقرب اللقاء فيختصر الزمن نفسه خجلا منا..

أعاد عصام رأسه الى الوراء متكئا على حائط السجن واستغرق قلبه في سرد ذكريات جميلة جمعته مع ريم بدأت منذ سنين.. وكانت هذه الذكريات تؤرقه وتصمته وتكون هي وحدها كافية لأن تبكيه..

لكن يد أبي محمود التي امتدت الى يده زرعت في نفسه املا جديدا بلقاء سيجمعهم ذات يوم.. وكذلك حضور بعض من الشباب غير طعم الجلسة الى أحاديث جديدة ينسون فيها أحزانهم الكثيرة التي تسكنهم جميعا..

كانت هذه المرة الاولى التي تنظر فيها أم عمر الى أحد ما.. إنها ريم.. فقد تبادلتا النظر للحظات شعرت فيها ريم بحنو ام عمر ورغبتها بأن تجلس الى جانبها.. فمشت خطوات قصيرة لتكون عندها ولتسمع تلك التنهيدات التي ملأت صدرها حين نظرت الى ريم مرارا وابتسمت بحزن ثم دارت دموعا كثيرة وقالت:

-لقد كتب علينا الانتظار يا ابنتي.. جميعنا ينتظر.. حتى الميت يرقب دفنه منتظرا مصيره النهائي..

تمعنت ريم طويلا في وجه ام عمر وكلامها المؤلم فعدلت جلستها ترقب بيت عصام وتشاطرها مشاعرها الكثيرة ثم قالت:

-انا انتظر من احب.. وانت يا خالة من تنتظرين؟

ابتسمت ام عمر باستهزاء لتشعر ريم أن صفائح وجهها ستتكسر.. فهي لم تبتسم منذ وقت طويل وهي تقول بعناء:

-وأنا أيضا أنتظر من أحب.. إبني عمر.. الذي فقدته منذ خمس عشر عاما..

تلك السنوات أزعجت ريم ومنعت عنها استنشاق الهواء بعد أن وضعت يدها على صدرها وأسقطت دمعتين صغيرتين لتعود ثانية وتسمع باقي ما ستقوله أم عمر.. التي اكملت قولها:

-كان في الخامسة عشر من عمره حين أخذه والده من حضني وهرب به الى مكان لا أعرفه.. هل يمكن ان تتصوري ذاك الالم الذي يقطع أجزاء جسدك وانت ترقبين ولدك يلتصق بك باكيا حزينا متألما ويد اخرى تشده لتنزع قلبك من اضلاعه ويمضي؟.. كل شيء لا وصف له أمام هذا الموقف..

كانت أم عمر تبكي وتبكي وكأن بكائها جزء مهم من الحديث.. حتى تمنت ريم لو أن الحب لا أثر له في هذا الوجود حتى لا يسبب لنا كل هذه الاحزان.. فهي نسيت نفسها وهي تشارك ام عمر بكائها المر الذي له طعم لا يحسن صنعه الا كل ظالم متجبر.. كل كلمة قالتها ام عمر طبعت في قلب وعقل ريم التي كان لديها مساحة صغيرة جدا من الراحة حين وصلت الى أن هناك في هذا العالم من هو حزين مثلها تماما..

هي أيام كثيرة تلك التي مضت ولكنها بطيئة الى حد الجنون.. شهر واحد فقط في السجن واصبح عصام يحفظ كل ما فيه.. وماذا بعد؟ كم شهرا اخر سيمضي حتى ينتهي كل شيء؟

وككل صباح كان يجلس أبو محمود الى جانب عصام حين اقترب أشرف ليجلس الى جانبهم وهو يوجه كلامه الى عصام قائلا:

-قل لي ياعصام.. هل تنتمي الى جهة معينة؟

نظر عصام الى اشرف مبتسما وهو لا يستهجن كلامه قائلا:

كان كلام عصام غريبا على اشرف الذي نظر الى ابي محمود لعله يفسر جزءا منه على الاقل ..وهذا ما حدث حين هز ابو محمود رأسه مرارا وكأنه يفكر في أمر ما ثم قال:

-يقصد عصام ان المهم هو النتيجة.. أي اننا جميعا نفدي الوطن بكل ما نحب وليس المهم هو أصل الانتماء يا اشرف..

كأن الفكرة لم ترق لأشرف الذي حرك فمه ممتعظا مما قالاه فرد بسرعة:

-وماذا قدم لنا الوطن بالمقابل؟

كلام أشرف قسى على الجميع وكأنه سيوف مزقت قلوب الشباب وهم يستمعون لكلامه المسموم.. عدل ابو محمود جلسته بغضب وصرخ بوجه اشرف قائلا:

-وهل تنتظر مقابلا للدفاع عن كرامتك وحريتك ايتها الاحمق؟

في تلك اللحظة التي وقف فيها الجميع كان عصام يقف بين الاثنين مهدئا من غضبهما ومحاولا السيطرة بهدوء فيما أجاب اشرف بصوت مرتفع قائلا:

-هل تريد أن تعرف ماذا أعطاني الوطن؟ لقد سرق مني عمري وأحلى سنينه.. ثم منع عني كل ألوان الراحة في الحياة.. وكم عمرا سأعيش حتى أعوض كل هذا؟.. بل وحين أخرج من السجن ماذا تتوقع أن ينتظرني؟ وانت.. لقد حرمت من أولادك وزوجتك وبيتك الدافيء.. وكذلك عصام ..ترك خطيبته تقاسي الالم والحزن وبدلا من أن يجمعهما بيت واحد.. فلن يرى احدهما الاخر قبل سنوات اربع.. كفوا عن حديث الشجون فقد سئمت.. ولو كان ثمة فائدة منه لما كان هناك متعاون واحد مع الاحتلال.. يا أيها الشرفاء..

كل شيء كان هادئا بعد أن أنهى اشرف كلامه.. خاصة عينا عصام الذي تأكد تماما أن أشرف يعاني من قهر السجن وأحزان كثيرة.. وأن كلامه لا ينبع من قلب رضي بالسجن مكانا له عوضا عن حضن امه.. لذا آثر الجميع الصمت حتى يهدأ اشرف تماما..

لم يكن مرور الايام بالامر السهل.. حتى بعد أن تخرجت ريم وهدى من الجامعة وقضاء مدة لا بأس بها من أيام عصام في السجن.. إلا ذاك اليوم الذي كان ينتظره الجميع بفارغ الصبر.. يوم الخميس ..

وهو اليوم الاول الذي ستقابل فيه والدة عصام إبنها فهي وهو مع ريم وحمزه لم ينام أحد منهم أبدا.. بل كانت السعادة وكأنها طفل شقي يوقظهم كلما غفت عيونهم.. وعلى الرغم من أن الاحتلال لم يسمح لاحد أن يرى سجينه إلا أمه إلا أنها كانت تحمل أشواق القرية ولهفة ريم وحب حمزه وحملتها مع قدميها المتعبتين السعيدتين لتلقى يوما شاقا بدأ من صياح الديك الى العصر ولم تكن قد رأت ولدها بعد.. فأحباب السجناء كثر ..ومسافة السجن مؤلمة.. لكن وجه عصام المتهلل وهو ينظر الى جانب أصحابه كان الشفاء والامل

والسعادة المتبقية لوالدة عصام التي كذبت طويلا على نفسها وهي تقسم ألا تبكي امامه.. فإن لم تبتسم فقد خسرت لقاء إبنها الذي تأخر طويلا.. كانت الاسلاك الفاصلة بينهما كريهة.. قديمة تحمل عناء آلاف الأيدي التي اطبقت عليها شوقا وحبا.. ومع ذلك لم تنكسر بل كانت قوية بحجم قسوة الاحتلال الذي كان يقتل اللحظات الجميلة بالتذكير دوما بأن مدة الزيارة قصيرة جدا لا تتجاوز الربع ساعة فقط..

ومنها أسرع عصام وأمه ليلتقيا.. وقد حملت أعينهم الكثير من الشجون ودقائق البعد التي قتلت أفراحهما.. لم تكن تسمع الام بسهولة صوت عصام وهو يتقدم بهدوء ليقترب اليها قائلا

-أمي.. حبيبتي كيف حالك؟ اشتقت اليك كثيرا..

حاولت الام أن تمنع صوتها من الاختناق لتقول كلمة واحدة تطفيء شوق ابنها.. لكن صدرها كان مليئا بالكلام المتبعثر والمشاعر الممزوجة بالحب فتقدمت خطوة وهي تعلق عينيها بوجه إبنها المتعب وابتسمت بضيق وألم لتقول والدموع تصارعها

-أنا بخير يا حبيبي.. لا طعم للحياة بدونك.. فنحن ننتظر عودتك بحب أيها الأغلى..

كان عصام يستمع لكلام امه وكثير من مشاعر الحسرة بدأت تقتل القوة التي تعب كثيرا ليصل اليها وهو يحاول أن يتجنب الحديث عمن يحب.. فهو خائف قلق مما ينتظره من أخبار عنها.. وهذا ما قرأته أمه في عينيه التي لم تعد تراهما بوضوح بعد ان وقف الكثير من الجند بينهما.. فصوته أصبح بعيدا يشوبه الاسى وهو يرفعه لتتمكن أمه من سماعه.. فصرخ قائلا:

-أمي ..أمي.. أخبري ريم أنها في حل من أمرها..

كلمات عصام القاسية صدمت امه وهي تحرك رأسها بغضب احتجاجا على ما يقوله ولدها حزنا على فراقه لمن يحب.. فقالت وهي تحاول جهدها ان ترى وجه ابنها الذي بدأ يختفي بين الوجوه:

-عصام.. لا تقل هذا يا بني فإن ريم تنتظرك بكل حب وكلامك يا ولدي سيقتلها ويدفن كل أحلامها في رؤيتك..

عاد الهدوء ثانية الى تلك المسافة بين الام وابنها ..وكذلك ملامح وجه عصام التي اشرقت مجددا بعد ان تأكد مما يسكن قلب ريم تجاهه.. فتنهد بفرح شعرت به الام وهي تلوح له.. يد السجان التي قبضت على ذراع عصام اشعرته بأن الكون اصبح بناء صلبا لا يحسن هزه ولو بالقوة..

كان اشرف يسبق عصام بخطوة واحدة فيما صوت ابو محمود المرتفع ينبيء أنه ما زال يقف عن يمين عصام يشده السجان وهو يقبض على الاسلاك صارخا يحاول رفع رأسه وكأنه يهم برؤية شيء ما وهو يصرخ:

-انا لا أراه.. لا أراه..

انتهت تلك اللحظات التي همست بإنتهاء هذا اليوم.. ومع نهايته كانت الابتسامة تزين وجوه الجميع وهم يستمعون الى ريم التي كانت تقفز سعيدة بإطمئنانها على عصام وهي تطلب من أمه أن تحدثها للمرة العشرين بكل التفاصيل فلعلها تكون قد نسيت شيئا ما يمكن أن يساندها في طي الزمن الصعب الذي يفصل بين الاحبة لوقت طويل..

من السهل كان على من يسكنون السجن رؤية آثار الدموع في عيني أبي محمود وهو يدخل وسط صراخ السجان وغضبه.. اقترب الجميع فيما كان يقترب منه عصام حذرا لئلا يثير غضبه ويزيد ألمه.. تنهد ابو محمود محاولا نسيان ما حدث بإغماض عينيه.

-هل هناك أمر ما أزعجك في الزيارة؟

أيقظ صوت عصام أبي محمود وهو يفرك وجهه بكلتي يديه ثم قال:

-لا شيء.. إنما حاولت جهدي طوال الزيارة أن أرى وجه ولدي الذي ولد حديثا فلم أستطع.. كانت زوجتي ترفعه بكل قوتها دون فائدة..

وفي لحظة.. حين التقت عينا عصام بعيني اشرف كانت الدموع تحلق امام الحدقات وهم يستمعون لكلام ابي محمود بقسوته فيما كان اشرف يتحرك ليجلس الى جانب عصام

وقف أبو محمود واقترب بسرعة نحو اشرف وقد كانت الكثير من الملامح تقتل وجهه ثم قال:

-ولدي الذي لم أره.. وريم التي يتوق عصام لرؤيتها.. ووالداك اللذان ينتظرانك بلهفة وغيرهم الكثير من الاحباب.. نحن هنا حتى لا يكونوا هم مكاننا عبيدا للمحتلين.. فسجننا حرية لهم أيها الغبي..

عاد جو التوتر والغضب فيما أوقفت يد عصام أشرف الذي كان ينوي النهوض لبدء معركة جديدة مع أبي محمود وقد تركه ليسود الهدوء مجددا على السجن.. لم يعجب هذا الهدوء عصام وهو يتفقد بعينيه وجوه الجميع..فكانت النتيجة أنه الهدوء الذي يرافق عاصفة هوجاء قد تنال منهم

جميعا.. نظر الى القضبان مرارا ولعنها فيما كرر نظره الى اشرف الذي جمع قدميه بين يديه وغرس رأسه فيهما ثم قال بصوت هاديء:

-قد سألني المحقق يوما عن أجمل شيء في هذا الكون.. فلم اجبه.. كلمات عصام اثارت فضول الجميع وهم يحيطونه بأنظارهم الحادة ينتظرون إتمام حديثه فيما أوقفته قدميه عند أشرف حين جلس على طرفيه.. وبسرعة اتجهت الانظار الى لؤي الذي وقف مبتسما وهو يفخر بنفسه قائلا:

-حين أعتقلت حرمت من النوم مكبلا بالحديد لايام طويلة.. ظننت أنها النهاية ففرحت.. الا أن الموت الذي يرجوه السجين كان أغلى أمنية عندي.. ولما فكرت للحظة في الاستسلام قررت أن أقطع لساني حتى لا اضعف فأدفع الثمن غاليا طوال حياتي.. عندها خرجت منتصرا قويا أفخر بنفسي.. والأن لم يتبق الا اشهرا واعود حرا من جديد..

أضاف كلام لؤي السعادة والارتياح.. خاصة بعد ان قرأ عصام في عيني أبي محمود أشياءا كثيرة كان يعلم أنه سيقولها بعد فترة قصيرة..

صوت هدى الذي تخلل بخار الشاي كان يغير المشاعر ويحولها الى قليل من الفرح وهي تنظر الى ريم قائلة:

-المهم أن عصام بخير..

هزت ريم رأسها بدلال وقالت بحب :

-أجل..

أعادت هدى رأسها مجددا لرؤية ريم وقالت:

-وأنت؟

-وأنا كذلك.. فهي بضعة أشهر وينهي عصام العام الاول من السجن..

أضحكت كلمات ريم هدى وهي تعزي نفسها بقرب لقائها مع من تحب.. الا أنها استسلمت لرغبة صديقتها في تقصير مسافة السنوات الاربع ثم قالت:

-وماذا تفعلين ازاء السنوات الكثيرة هذه يا صديقتي؟

أعادت ريم بحركة من رأسها خصال الشعر المتراكمة على كتفيها وانتظرت بضع ثوان لترد على صديقتها قائلة:

-لقد اجتزت المرحلة الصعبة.. وهي تقبل فكرة غياب عصام عني لسنين اربع..

-والمرحلة الثانية؟

-أن تنتهي كل الايام التي تفصل بيني وبينه حتى نلتقي.. لذا اضع خطا احمرا لكل خمسة أيام تمضي وألغيها من الحياة تماما..

كانت علامات الاستغراب بادية على وجه هدى وهي تستمع بإهتمام لصديقتها.. حاولت التخفيف عنها فابتسمت وهي تقترب منها لتجلس الى جانبها قائلة:

-ولماذا خمسة ايام بالضبط؟

-لا أعرف.. لعلني أفعل ذلك أملا في أن يخرج من سجنه اليوم السادس او السابع..

كان صوت هدى هادئا وهو يتسلل الى مسامع ريم التي أخذتها الذكرى الى طريق مسدود.. فقالت بجدية:

-أما زلت تخافين الاحتلال يا ريم؟

لم تستطع ريم أن تقف بقوة أمام سؤال صديقتها فلاذت بالصمت للحظات ثم قالت:

-لا أعرف يا هدى..

-هل تذكرين ما قالته لك المرأة التي افقدها الاحتلال ولدها؟
-اجل أذكر.. قالت لي أنك بمجرد اعتراقك بالخوف فهي الشجاعة ذاتها.. لانني أكون قد وضعت قدمي على اول الطريق الذي يوصلني الى تلك البطولة والصمود الذي قرأته في عينيها لقهر الاحتلال..

-صباح الخير أيتها الحبيبة.. كل عام وأنت بخير.. اليوم عيد ميلادك ..لو كنت معك لصنعت لك من حبي ضوءا أهديته لعينيك.. اشتقت إليك.. أكثر من شوقي للمس قطرات الندى المتبعثرة على نافذة بيتي.. وأكثر من صوت العصافير الشقية التي توقظنا رغم توسلاتنا لها بأننا لم ننم الا قليلا.. أهديك في هذا اليوم حبي.. لهفتي لرؤياك وخوفي عليك.. أشعر انك تجلسين الى جانبي الان.. تقهرين قضبان السجن وتبتسمين كنجمة صيف تزين سماء الكون الحزين..

-عصام.. ماذا أصابك يا رجل؟

نظر عصام بسرعة الى ابي محمود.. ثم ابتسم وقال بتوتر:

-لا شيء..

-هذه المرة الثانية التي أناديك فيها..!

عدل عصام جلسته ليزيل الارتباك الذي أسره للحظات ثم إبتسم وقال:

-ابدا.. إنما كنت أتحدث مع خطيبتي..

-حقا.. هذا رائع وماذا قلت لها؟

-اشياءا كثيرة..

-هناك شيئا مهما عليك أن تخبرها به..

نظر عصام بإستغراب الى ابي محمود الذي لم ينتظر سؤالا فقال:

-أننا سنبدأ غدا اضرابا عن الطعام الى أجل غير معلوم..

هذا اليوم الاول منذ رحيل عصام الذي كانت تفتح فيه ريم باب بيتها وتبتسم.. تستنشق هواء أول الشتاء وتنظر الى الافق المشرق لحدود الوطن.. ثم تخطو خطوات قليلة لتقف أمام صديقيها المقعدين وترفع يدها مرحبة بهما.. ولتقفز تلك المسافة التي تفصلها عن محل أبي علي الذي لم تدخله منذ رحيل عصام.. كانت سعيدة وكأنها استمعت لكل ما قاله عصام صباحا لها.. وهذا ما أسعد أبو علي وهو يرقبها فراشة تلون الشتاء بلون جديد..
-صباح الخير أيتها الاميرة الجميلة..

ألقى أبو علي تحيته على ريم التي وقفت بدورها تبادله اياها ثم قال:
-أراك متهللة اليوم..
نظرت ريم مرارا الى الارض خجلة وقالت:
-كل يوم ينتهي أسعد به أكثر لقربي اللقاء بعصام..

ضحك ابو علي طويلا وهو يسعل بعد أن اقتنع بأن ريم قد كبرت أخيرا.. وفي هذه اللحظات كانت قد غادرته لتلقى امامها مباشرة من غير سعادتها وكتم الفرحة في وجهها ومع أنها تجاوزته الا أن صوته أوقفها قائلا:
-صباح الخير يا ريم.. لك عندي خبرين يستحقان الوقوف معي قليلا..

انه سالم وصوته الجدي الذي أوقف ريم للحظات قبل أن تستدير نحوه دون أن تقول شيئا لتسمع ما يريد..
اقترب منها قليلا وملامح السعادة تزين وجهه.. تنهد طويلا ثم قال:
-أما الخبر الاول.. فأظن أنه لن يسرك.. أتعلمين لماذا؟

سارعت دقات قلب ريم بخوف شديد حتى أنها لم تعد ترى غير لون السواد يوشح السماء التي منذ لحظات كانت تراها الاجمل.. الا أنها حافظت على صمتها.. بل سارعت بقوة الى الامل الذي عاهدت عليه عصام.. ومع أن دقائق ثلاثة مرت الا أن دموعها بدأت تستأذنها بالنزول لتضعف أمام سالم.. والذي كان يقربها كثيرا ليهمس لها قائلا:
-غدا سيبدأ السجناء اضرابا مفتوحا عن الطعام احتجاجا على ظروف اعتقالهم

في الحقيقة كانا خبران سيئان.. الاول هو الاضراب المفتوح والثاني هو ظروف إعتقالهم القاسية التي دفعتهم الى هذا القرار المميت.. هذا ما كانت تفكر فيه ريم وهي تبكي لتداري حزنها الذي بدأ يطعن قلبها بشدة.. لكن صوت عصام الذي كان يذكرها بإستمرار حقده على سالم أيقظها وأكد لها أنه فعلا متعاون مع الاحتلال والا لما كان يعلم كل هذا.. مشت ريم خطوة احتقرت فيها سالم رغم ضعفها.. الا أن سالم أوقفها مجددا وهو يقول:
-أين تذهبين؟ لم تستمعي الى الخبر الثاني بعد..

نظرت ريم الى سالم وقد كانت تهم بحذف وجوده عن الارض ..لكنها تمسكت بالصمت مجددا أمام برودته واشتفائه بما آل اليه حال عصام.. فاقترب منها وقال:

-إذا كان يحزنك حال عصام وترغبين برؤيته في أقرب وقت فلدي صفقة مربحة لك..

وبدون سابق استئذان تغيرت ملامح ريم الى الاستغراب المتناهي.. شعرت أن عصام في لحظات كان يقف امامها.. فابتسم قلبها وتنهدت بفرح لتستمع الى ما سيقوله سالم حيث أكمل قائلا:

-أستطيع ان أخرج لك عصام من السجن.. مقابل أن تدفعي مبلغا من المال لقاء كل عام..

كل شيء اختلط امام ريم في لحظات.. لم تستوعب شيئا مما قاله سالم.. فالمعادلة صعبة كررتها مرارا في رأسها حيث كان سالم يلوح بأصابعه مودعا لها وهو يقول:

-فكري بالامر جيدا.. وحين يتوفر المال معك فأنا عند وعدي..

اصعب اللحظات هي التي نظنها جميلة فتنقلب الى الاحزن والاتعس .. كيف يمكن لريم ان تواجه المصير التي لا تعرف؟ اين سينتهي وهي ترقب ذاك الشارع الذي جمعها مع عصام في حب أبدي عشقه الوطن؟..

كان أبو محمود ينفض ثيابه بقهروهو يجلس الى جانب عصام ومعالم الانزعاج تغير ابتسامته المعتادة.. انتبه عصام بسرعة الى الفارق الكبير الواضح في تصرفات ابي محمود.. فاقتنص سؤالا قائلا:

-أراك غاضبا.. هل من خطب؟

كانت الدموع في عيني أبي محمود تنعقد ثم تتراجع وكأنها لحظة ضعف وقوة تتصارعا لتسكن الاقوى عينيه ثم قال:
-لعل أصعب لحظة في حياتي أنني لم ارولدي.. حتى انني لم استطع سماع اسمه ولكن اكتشفت الان ان الاصعب منها هي..

كان عصام يستمع بشغف الى حديث ابي محمود.. فاقترب منه اكثر قائلا:
-اية لحظة هي التي زرعت كل هذا الانزعاج البادي عليك؟
تحول صوت ابي محمود الى صراخ وهو يقول:
-حين اكتشفت أن اشرف لا يمتثل للاضراب عن الطعام..
كان خبرا مزعجا.. حين التفت الوجوه جميعها الى اشرف الذي وقف بزهو وغضب ثم تقدم قائلا:
-الا يكفينا ما نحن فيه من عناء وقذارة؟ وهل ثمة عاقل يسجن نفسه في سجن داخل سجنه.. أنا لا اعرف كيف تفكرون؟..

كانت تلك اللحظات في السجن هي الاصعب.. حين انتفض الجميع غضبا من كلام اشرف فيما حاول عصام أن يخفف من التوتر فقال بحذر:
-فليهدأ الجميع.. لعل أشرف عنده وجهة نظر خاصة به علينا ان نسمعها بهدوء.. فمن خارج السجن الان ينظرون الى صمودنا ويحيون بطولتنا فلا يجب ان نخذلهم.. بل علينا ان نقهر الاحتلال بوحدتنا..

كلام عصام كان كافيا لان ينشر الهدوء مجددا حتى ابي محمود.. لكن احدا لم يلحظ بركان الغضب في عيني عصام وهو ينظر الى اشرف الذي كان يود لو يخلع قلبه ويبدله بقلب عاشق للوطن تائه في حبه.. فتقدم بخطوات ثابتة واقترب من اشرف لئلا يسمعه احد ثم قال:

-هذا أخر ما توقعته منك يا اشرف.. أنا لا اجرد حبك وتضحيتك في سبيل ان يحيا وطننا عالي الرأس ولكن..

نظر اشرف بحزن مقهور الى عصام وقال بغضب:

-ولكن ماذا؟ فقدت وطني واهلي وعمري.. فقدت لذة العيش كباقي الناس بحرية وسلام.. وانا اعيش الان لاموت ببطء.. ماذا أفعل اكثر؟ لم يتبق لي الا الطعام.. هو وحده من يشعرني انني ما زلت على قيد الحياة.. أنني انسان.. هل كتب علي ان أسلب من كل حقوقي يا عصام؟ صديقي الذي مات تحت التعذيب في سجنه.. قتلوا فيه كل شئ ..استكثروا عليه أن يموت بسلام.. إستئصلوا كل أعضائه.. وتركوه ليموت بوحشية.. هيا أخبرني يا عصام بماذا كان يفكر قبل موته؟.. أية أحلام صغيرة لم يحققها؟ أي وجه كان أخر من تذكره؟ تلك الساعات القليلة التي تسبق موته كيف قضاها؟ هيا فليخبرني أحدكم..

صراخ أشرف القاسي الذي هز أركان السجن حرك مشاعر الجميع فحزنه على صديقه أنساه كل شئ سواه ليقف متسائلا بحزن أكبر وصوت أعلى قائلا:

-هيا يا سادتي قفوا جميعا وأخبروني ماذا فعل له وطنكم تلك اللحظات؟ .. هيا قفوا لنصفق لهذا الوطن الذي يسخر منا ويقتل ما تبقى من انسانية فينا.. طوبى لك أيها الوطن وقد سرقت منا كل شئ جميل.. وتركتنا لنقع في غرامك ثم ينتهي بنا المطاف الى الموت ..

كل الكلمات أنتهت وأبو محمود يهوي بيده على وجه اشرف ليوقظه من غفلة الشعور بالقهر والظلم الذي لا ينفك يجلد أشرف بقوة..

-عصام..كم مرة علي ان أعتذر حتى تسمعني؟ ألف مرة؟ أم بعد سنين سجنك؟ أتوق الان لأن أتناول عشائي معك.. حيث يجلس الشرفاء والجبناء.. لا يحزنني اضرابك عن طعامك.. ولا عن حياتك التي قد تنتهي.. بل ما يؤلمني هو أنني أنظر الى طعامي بشغف وأنت تحتضن الوطن بحب كبير ..

كان الكلام صامتا في قلب ريم وهي تطوي الايام خجلة من نفسها..لتهمس لعصام كل يوم بدموع ساخنة.. تخبره كم هي جبانة أمام بطولته.. ترجوه بأن يعطيها تلك القوة التي تسلب عقله وقلبه فلا يفكر إلا بها.. كانت تتوق لأن تغمض عينيها فينتهي هذا الكابوس الذي بدأ بإعتقال عصام ..وانتهى بإضرابه عن الطعام ليواجه قرارا لا يعرف أحدا نهايته.. ومع كل ذلك فهي لم تفكر أبدا الا في العمل الذي بين يديها حين التحقت بمحل أبي علي لتؤمن المال اللازم.. لعلها تستطيع أن تخرج عصام من الدوامة التي يعيش فيها والتي اسمها سجن..

بالرغم من أنه كان يوما عاديا الا ان ذاك الخبر الذي انتشر بين الجميع غير معالم اليوم الى الاحلى والاجمل حين أنتهى أضراب السجناء بعد تحسين أوضاعهم ليس الى الافضل تماما.. وهذا ما أسعد ريم وجدتها وكذا باقي أهل القرية.. فشعرت ريم أن كل وردة تضمها كانت تهديها الى ذاك الشاب القابع هناك والذي يفكر الان فيها دون ريب..

لم يستطع أي من السجناء التخفيف من حدة الغضب بين أشرف وأبي محمود.. فقد كان أبو محمود غاضبا جدا وهو يصارع مشاعره الكثيرة تجاه

ذاك الشاب.. لكن ابتسامة لؤي وهو يقترب من الشباب غيرت الوجوم قليلا وهو يقول:

-كف عن غضبك يا ابا محمود..

لم ينظر ابو محمود لاحد وهو يقول بصوت منخفض:

-الغضب يذهب لوحده.. ولا أستطيع أن أكفه انا..

ضحك لؤي حين تذكر شيئا ما وقال:

-لقد ذكرتني بأمي.. هذا كان رأيها دوما.. فهي منذ صغرنا حريصة علينا وتغضب لأي شيء يؤذينا ..أذكر أنها كانت دائمة الصراخ ان لم يقفل أحد باب البيت.. كان هذا أهم ما يشغلها ..وهي تظن أنها بذلك لا تترك فرصة للزمن بالوصول إلينا.. فقد ضربت أكثر من مرة حين كنت أنسى باب البيت دون إغلاقه.. وذات يوم نسينا جميعا تلك القاعدة الذهبية.. وكذا أمي شغلت بأعمال البيت حتى نسيت.. ويومها شب حريق في البيت.. لم تستطع أمي فعل شيء.. فقد جمعتنا من حولها وبدأت تصرخ وتصرخ حتى أجتمع كل من في القرية وأنقذونا ..عندها ضحكت أمي كثيرا وهي تتخيل ماذا يمكن أن يحدث لو أننا لم ننس ذاك القانون القاسي الذي كنا نظن أنه سينقذنا من بؤس الزمان ..

فهم الجميع ما كان يصبو إليه لؤي من حديثه.. فهو لم يكن يجد مبررا لاشرف.. بل كان يوصل فكرة بأن ثمة أمور نراها بعين.. فيما أن رؤيتها بالعين الثانية هي الأصوب.

هي أيام قلائل تفصل بين عصام ووجوده في السجن عن العام والنصف.. ومع أن شيئا لم يتغير لا في السجن ولا في القرية لكن ريم استطاعت أن تجد في عملها لتجمع نصف المبلغ الذي يخرج عصام من سجنه قبل عام واحد فقط.. لم يكن أحدا من أهل القرية على علم بسبب عمل ريم.. لأن الجميع كان يستمتع برؤيتها كل يوم تزين القرية وتعطيهم أملا بخروج عصام القريب.. بدءا من صديقيها المقعدين وأم عمر وكذا هدى وماجد الذي قرر أن يجاور محل والده فيفتح محلا لصناعة الاطر الخشبية والتي يستخدمها أهل القرية لتزيين أشيائهم الغالية.. وبهذا توسطت ريم بين محل ماجد ومحل أخر مغلق على أمل خروج عصام ليتمكن من استخدامه لعمله الخاص.. وهذا ما كان يأمل به الجميع..

قاربت الساعة على العاشرة.. استيقظ السجناء جميعا إلا أبا محمود.. كان مستغرقا في النوم كأنه طفل حديث الولادة.. وهذا ما أثار استغراب عصام حين تقدم منه فوجد الكثير من حبات العرق تنعقد على جبينه ..اقترب اكثر.. وضع يده على وجهه ليشعر بالحرارة تملأ جسده.. ارتعش قليلا فاستيقظ ابو محمود بإبتسامته المعتادة ووجهه البريء.. حدقا ببعضهما للحظة أخافت عصام كثيرا ..كان يبدو الانهاك واضحا على وجهه وكأنه كان في عمل شاق لايام طويلة.. إلا أنه قرأ كل ما يدور في خلد عصام.. فقال:

-لماذا تحدق بي هكذا؟

تمعن عصام في نظره اكثر وكان يبدو القلق والتوتر واضحا عليه فقال:
-أنا قلق عليك.. أشعر أنك لست على ما يرام..

كلمات عصام جمعت السجناء حول أبي محمود في لحظات.. مما أثار ضحكه ورغبته في النهوض.. فتقدم لؤي وعصام لرفعه قليلا ثم قال:
-حين اعتقلت لاول مرة.. منعت من قضاء حاجتي.. وكان هذا الامر صعبا جدا.. لم أستطع تحمله أو تخيله.. شعرت أن السجان رغب بأن يساويني مع الحيوان.. ومرت الايام.. ثم أنتهت بكل ما تحمله لنا دوما من أفراح وأحزان .. كلمات أبي محمود غيرت ملامح عصام الى الاسوأ.. فلم يكن هناك داع لذكر الاحزان في هذه اللحظات القاسية..

تلك الاصوات البعيدة الهامسة التي كانت تسمعها ريم كل ليلة كانت تعطيها الامل.. فكثير من أصوات الشبان والنساء الذين يسهرون ليلا تشعرها بأن الحياة ما زالت مستمرة رغم الآلام التي لا تنتهي.. فما هي الا فترة قصيرة ويمكن لريم أن تجمع الالف الاولى ليبقى عاما واحدا لعصام يمكن أن تجمع مقابله من المال في قصير من الوقت.. كانت تتنهد بفرح وكلما دق قلبها كانت تبتسم.. لأن الحياة بدأت تفتح لها يديها من جديد..

متسارعة وقوية تلك الطرقات التي كانت تطرق باب السجن وسط صراخ عصام بأن يفتح الباب.. في لحظات كان السجن يضج بالحركة.. فحالة أبا محمود تدهورت بسرعة وهو يقلب نظراته في السجن بين رفاقه.. لم تكف طرقات عصام بل كانت تزداد وهو يصرخ:
-افتحوا الباب.. فالعم أبو محمود يموت..

ورغم كل شيء كان أشرف يطل على أبي محمود وعينيه تهمان بالبكاء المتواصل.. أقترب منه وترك من خلفه الجميع.. فيما بادله ابو محمود بالفرح المتدفق من عينيه رغم مرضه.. تنهد أشرف بهدوء وقال:

-لا تمت.. فما زلت بحاجة اليك..

كماء الصيف المتدفق على ارض عطشى نزلت كلمات اشرف على قلب ابي محمود فاستجمع كلماته وقال بعشقه:

-لا أذكر اننا اتفقنا يوما..

دموع أشرف كانت تتساقط على يد ابي محمود وهو يعض على شفتيه ..يتذكر كل يوم مر معه في السجن.. يشعر أن الذكريات تتخلل جسده فتتركه باليا من شدة الندم.. كانت حالة أبي محمود تتراجع بإستمرار وأشرف يقترب أكثر منه ويهمس له قائلا:

-كنت عصيا على الفرح.. أحببت العيش بسعادة ولم أكتشف أن سعادتي كانت مختبئة بين ضلوعي.. أنا أحب وطني وأحبك ..لكن مشقة الحياة تسيطر علينا وتدفعنا الى اقتراف الحماقات بين الحين والآخر ..فسامحني أرجوك

ابتسم ابو محمود وهو ينظر الى أشرف وكأنه يهم بتقبيله وزرعه في جسده فخورا سعيدا به.. فقبض على يده وقال:

-لو أن ولدي ولد بين ذراعي وتسنى لي تسميته لسميته أشرف..

انتهى كل شيء.. الحب والحزن واللقاء.. وأصبح السجن من غير أيام تعد ولا لحظات.. هو أسود قاتم منذ بدء الخلق ..فتبا لمن صنع أول سجن ليقتل فيه كل الاحلام والافراح.. كانت هذه أفكار جميع الشباب وهم يرقبون ابا محمود يودع الحياة..

باليد الاخرة كانت ريم تقدم المال لسالم الذي وعدها ببقاء عام واحد لسجن عصام فكان تماما كالشتاء والصيف وكذلك الخريف والربيع.. يجمعهم تناقض واحد وتفرقهم صفات كثيرة..

ففي الوطن تتشابه كل الاشياء حين نبحث عن الخوف.. وكأنه مختبيء بين كل ابتسامة وفرحة.. حتى أنها تقتل لحظات الندم التي يستيقظ فيها الانسان يوما ليزرع شيئا جديدا.. وهذا ما شعرت به ريم حين ألقت بنفسها على السرير وكأنها تصارع لحظة الندم والخوف.. فتنتصر لحظة الخوف.. خوفها على عصام من أن يمكث في السجن أكثر فتبتسم وترضى عن كل ما فعلته في سبيل خروج من تحب من ذاك الموت الحزين..

بدأت رؤوس المعتقلين وكأنها تتآكل من شدة التصاقها بالحائط.. فمنذ موت أبي محمود لم يكلم أحدا الاخر.. وباب السجن يفتح ويغلق بإستمرار والتحقيق لا يستثني احدا.. فمن الملام في موته؟ كان هذا السؤال القذر الذي يطرحه المحقق على الجميع.. والجواب واحد.. أنتم.. جواب قوي.. شجاع لم يعد يهتم بما سيحصل فحين نفقد الاحباب نفقد حرصنا عليهم وجبننا لأجلهم.. الا أن احدا لم يتوقع ماذا كانت تخفي نتيجة التحقيق لأحد ..وهذا ما صدم الجميع..

ليل ساكن.. وشتاء مبطن بلون أصفر.. وعلى الرغم من البرد القاسي وساعة الليل المتأخرة الا ان اصواتا كثيرة كانت تسمعها ريم وهي تهم بالنوم .. وحين تذكر أن ليس لها من تخاف عليه تعود للنوم ثانية.. ففرحة بقاء عام واحد لعصام وكذلك عودة شقيقها المرتقب أنستها القلق تماما..

أمر غريب الصوت عال.. صوت فرح وضجة.. لكنه الشتاء الذي يجتمع على نفسه ويغلق الابواب والنوافذ حتى لا يتمكن أحد من سماع شيء بوضوح.. وأخيرا استسلمت ريم ليس لنوم بالطويل لتستيقظ على طرقات سريعة وعالية.. الغفلة أخافتها فنهضت مفزوعة لتكون أمام البيت في دقائق قصيرة دون ان تحاول تهدئة الجدة الذي بدا عليها الارتباك والخوف ايضا.. فكانت قرب الباب لتقف مباشرة أمام حمزه.. كان مسرورا وكأنه ساهم في ايقاظ ديك الصباح ليسرع الى ريم التي لم تكفها حالة حمزه لتشعر بالسرور ايضا.. حاولت أن تقلب النظر فيه مرارا فهاهي المرة الاولى التي يأتي الى بيتها بعد رحيل عصام.. ابتسم بعد أن التقط أنفاسه وسط دهشة ريم ثم قال:

-ما هي مكافأتي مقابل ما أحمل لك من أخبار؟

ابتسمت ريم.. ثم ضحكت وكأنها عرفت كل شيء.. لكن الفرحة لعثمت كلماتها.. حاولت أن تقول شيئا لم تستطع.. ولولا شفقة حمزه عليها لما أخبرها بشيء وهو يهديء من روعها قائلا:

-عصام خرج من السجن..

إتكأت ريم على الباب وحاولت أن تستوعب شيئا مما سمعت لكنها لم تستطع.. كان يراودها فقط الشعور برغبة في إنهاء هذا الحلم الذي تريد الاستيقاظ منه.. اصبحت الحياة وكأنها ثقب صغير لا ترى فيه شيئا الا وجه عصام وهو يتلألأ أمامها.. ترغب في الذهاب اليه لكن قدماها لاتتحركان.. إنه حلم .. حلم جميل.. هذا ما أقنعت به نفسها وهي تجلس على الارض لتستقبل هذا الخبر السعيد..

كان حمزه والجدة يعلمان ما تفكر فيه ريم وهي تحاول استنشاق الهواء ببطء لتتأكد من أنها في منام او حقيقة فأيقظتها دموع الجدة وهي تضحك سعيدة.. وكذلك حضن هدى الذي جمعها في ثوان..

كل شيء جميل.. وله معنى جديد.. لكن ما الفائدة وريم فقدت قدرتها على الذهاب الى من تحب.. ولماذا تذهب؟ لما لم يأت هو؟ لماذا استكثر عليها أن تزيد ساعات فرحها قليلا؟ هذه الأسئلة التي حاولت أن تجد لها جوابا فلم تستطع.. كانت يد هدى ترفعان ريم وتجلسانها على الكرسي لتشرب الماء الذي أحضره حمزه.. فاقتربت منها هدى هامسة:

-هيا يا ريم.. عليك أن تذهبي للقاء عصام..

كانت ريم تحدق بدهشة الى الوجوه من حولها.. فكثير من الاسئلة تنخر رأسها بقوة ومع ذلك لم تقاوم ما حدث بعد.. واخيرا أستسلمت ونظرت الى حمزه كطفل صغير وجد أمه أخيرا ثم قالت:

-حمزه.. هل حقا عصام خرج من السجن؟

كانت ضحكة حمزه تظهر إشفاقه على حال ريم العاشقة.. فهز رأسه مرارا.. لتقول مجددا:

-ولماذا لم يخبرني أحد بالامس؟

رفع حمزه رأسه مستغربا من السؤال الذي فاجأه ثم قال:

-لم نشأ أن نقلق منامك..

وفي لحظات قفزت ريم بسرعة لتبدل ثيابها وصوت ضحكاتها تملأ البيت وقلوب الجميع.. وعلى الرغم من أن بيت عصام يبعد دقيقة عن بيت إلا أنها كانت ترى الدهر بينهما.. فهدى وحمزه رفضا الذهاب معها لئلا يزعجاهما..

كانت ريم تتنهد بحذر ودقة.. تستنشق حبا وتزفر شوقا ولهفة.. وحين امتدت يدها الى الباب كانت تهم بتقبيل الشتاء الذي لا تشعر فيه بردا بعد اليوم.. وهذا حال والدة عصام وهي ترى ريم وقد أشرقت بسعادتها.. غابت عنها كل الكلمات فعجزت أن تقول شيئا.. بدأت دموعها تتساقط بفرح ولهفة.. تبحث عن حبيبها الغائب منذ عامين ..فاحتضنتها والدة عصام وقد عذرت لها حبها وشوقها.. لم تجد ريم عناء في البحث عن عصام الذي كان صوته واضحا قويا آتيا من يسارها وهي تشعر أنه يقف على الدرجة الثانية من الدرج الفاصل بين الطابقين.. أسرعت الى النظر اليه بعد أن تركتهما والدته بفرحة وسرعة.. أخيرا تقابلا.. كان في عينيه ألف عام من شوق.. تحملان رذاذا ناعما من الحب.. يهم بأن يكلل ريم بها ويخبئها في عينيه لتعيش معه الى الابد..

أما هي فلا ملامح لها.. تغطي الدموع وجهها.. ولا تحسن أن تبعد عيناها عنه وهو يقترب بجسد بارد.. أقتربت خطوة بصعوبة بالغة ليبقى هو مكانه.. ابتسمت ومسحت دموعها فهي تعرف أنه يكره الدموع.. ومع ذلك لم يتقدم إليها كما ظنت رغم كل الشوق الذي يخبئه إلا أنه اخفاه.. بل قذفه وراء غضبه المتراكم على وجهه.. لكن الابتسامة لم تفارقها فاقتربت خطوة اخرى ليوقفها بيده قائلا:

-هل حقا أعطيت المال لسالم كي يخرجني من السجن؟

المال؟.. اخيرا اكتشفت ريم سر الغضب الظاهر على وجه عصام.. وعلمت سبب عدم مجيئه الى بيتها او إعلامها بخروجه من السجن.. حاولت أن تستوعب ما يحدث بقوة.. نظرت الى الارض مرارا ثم أخرجت ما في قلبها من حب وألصقته في عينيها لعله يغفر لها عند عصام..

لكنها لم تجب بل هزت رأسها ونظرت ثانية اليه وهو يقول:
-ذات يوم أنقذت حياتك من الموت.. وها أنت أنقذتي حياتي من السجن.. لقد تعادلنا فلم تعودي مدينة لي بشيء.. لذا أتوق الا أرى وجهك ثانية..

شعرت ريم وكأن جبلا ثقيلا قد قسم قلبها الى نصفين.. فعادت خطوة الى الوراء لتتمنى لو أن خروج عصام كان حلما.. ليكون ما سمعته الان متمما للحلم.. ولكن لا.. إنها تقف أمام من تعشق ومن بكت من أجله.. وانتظرته وعملت ليل نهار لاخراجه من السجن.. وها هو الان يقذف بكل أحلامها الى مستنقع البؤس..

كانت كلمات عصام قاسية جدا لدرجة أن ريم كانت ترى الكون من حولها وكأنه غمامة سوداء تحيط بعصفور ضعيف.. لم تتحرك خطوة.. فهي تقف على أشواك كثيرة تمنعها من الحراك.. يداها ثقيلتان لا تستطيعان الوصول الى الباب.. كل شيء خانها في لحظات وهي تودع وجه عصام الذي كان ينظر اليها بمزيج من المشاعر لم تفهم شيئا منها.. كانت فقط حزينة.. تائهة.. تبحث عن قطرة مطر توقظها من غفلتها لتواجه هذه الصدمة بقوة أكبر.. لم تر ريم شيئا امامها حتى وصلت بيتها فألقت بنفسها على جدتها باكية بصوت عال.. لتشعر بجدتها وهي تداعب شعرها تخالطها الدهشة وهي تقول:

ريم.. ما الذي حدث؟ لقد عدتي بسرعة..

ذاك الألم المختبيء في قلبها كان من الصعب قوله.. فهي في أحضان جدتها العجوز التي تعد أيامها بحزن.. وهذا ما كان يؤلم ريم وهي ترفع رأسها لتقابل وجه الجدة.. ثم تمسح دموعها وتقول:

-كان عندهم الكثير من المهنئين فلم أستطع ان أحظى برؤيته طويلا..

وكذا كانت كل أيام ريم.. تدفن نفسها في الفراش مريضة حينا وحزينة اخرى.. لم يأتها خبر واحد عن عصام بل هي تجنبته فلعل قلبه يرق لها.. يؤلمها تأرجح مشاعرها بين التفكير برضاه وصفحه عنها وبين غضبه وتنفيذه لما قال حينا أخر لتجد نفسها في دوامة من الألم لا تنتهي..

هي أيام كثيرة مرت ولم يحدث أي جديد..

كانت قاسية هذه الايام على عصام وهو يفقد الامل الذي كان يعيش من اجله.. ريم تلك الفتاة التي أتعبته فمنعته من النوم والسعادة والحب.. وما كان يشعر به حمزه تجاه شقيقه كان يدميه .. وكذلك خطواته تجاهه.. فهو على علم بما سيقول وهو يقترب قائلا:

-عصام.. هل يمكنني قول شيء ما؟

نظر عصام الى وجه شقيقه ثم ابتسم قائلا:

-على ألا تتدخل في موضوعي مع ريم..

-لماذا؟ فهو لم يعد موضوعا خاصا ..إنما..

وقف عصام بغضب ونظر الى شقيقه قائلا:

-ألا تعرف نتيجة ما فعلته ريم؟ هذا المال الذي أعطته لسالم كم شخصا قتل بسببه.. كم عائلة شردت وكم قتلت أملا وأحيت فيه محتلا..

-لكنها فعلت ما لم يستطع أحد فعله..

كلام والدة عصام الذي تدخل في الموضوع كان حادا وهي توجهه الى أبنها الذي نظر إليها بخجل وقال:

-أجل يا أمي.. لم يستطع أحد فعله لانه عمل جبان ينم عن خوف مصائبه أكثر من محاسنه.. فهي تعلم تماما من هو سالم.. وأنه كان السبب في سجني..فكيف له أن يقنع أحدا بأنه يرغب بإخراجي من السجن دون مقابل..

على أن يكون هذا المقابل مكسبا له وخسارة لنا جميعا..
-وهذا ما كان يريده سالم.. أن يوقع بينكما لتخسر القرية أجمل عاشقين فيها..
قاس جدا كلام والدته حين وقع على مسامع عصام وقد توقف عنده طويلا..

اسبوع كامل مرولم ير أحد وجه ريم.. فقد كانت تصارع غصة حزنها وهي تحاول أن تبتعد لتعطي عصام فرصة لعله يهدأ ويعود عن قراره ..وكل يوم كان يمر كانت تنهيه سعيدة متأملة في أن ينتهي كل شيء بسلام.. حتى أن طرقات الباب الهادئة لم تخفها.. فهي إما هدى أو شقيقها المنتظر مجيئه هذه الايام.. غادرت حضن جدتها واتجهت نحو الباب.. فهي لا تعرف وجه شقيقها الذي غادر منذ كانت طفلة ..لذا تأملت طويلا في وجه ذاك الرجل الواقف بإبتسامة رسمية يحمل اوراقا كثيرة.. وقد حياها برأسه ثم قال:
-هل أنت ريم؟

أومأت ريم برأسها وهي تستغرب معرفة هذا الرجل بها وخاصة أنها تأكدت من أنه ليس شقيقها.. لحظات وكان الرجل يعطيها ورقة توقع عليها لتستلم أخرى.. فكانت المصيبة.. وبئار الحزن الذي لا ينتهي.. إنها ورقة يفسخ فيها عصام عقد زواجه بها.. قرأتها ريم مرارا ومرارا ..قلبتها.. ثم طوتها.. ولم تكن قد بكت بعد.. وفي طيها أقفلت كل أبواب الامل والفرح ..ثم استسلمت للدهشة.. ترجو أن تزورها الدموع وتحلق بعينيها.. ولكن.. قتلتها تلك الذكريات فجلست وهي تضم بقلبها فصل الشتاء البارد الذي لا يغادر الا بعد أن يجلدنا بقسوته.. كم ساعة مرت؟.. لا تذكر ريم ..تذكر فقط كلماتها القليلة التي كانت تجيب بها على جدتها لتطمئنها أن كل شيء على ما يرام..

-ريم هل ستبقين على هذا الحال؟
رفعت ريم رأسها.. التعب والحزن يحيطان بوجهها وهي تنظر الى هدى وتبتسم بإستهزاء قائلة:
-وما به حالي؟
-منذ الامس وانت تغيبين رأسك بين قدميك.. وانا أتوق لارى دمعة على خدك تخفف كل هذه الاحزان المتراكمة عليك..
هزت رأسها المثقل بذكريات جميلة أصبحت أحلاما لا تعود.. كررت نظرها الى صديقتها وكأنها تراها لاول مرة ثم قالت:
-لا أريد أن أبكي.. علي أن أبقى صامتة حتى يقتلني الحزن الى غير رجعة..
تلاشى الامل في أن تتغير الامور الى الافضل وهدى تقف متجهة نحو الباب لتفتحه بعد ان طرق عدة مرات.. وقفت امام شاب في بداية الاربعينيات.. تبدو عليه أثار الترف.. لكن وجوده لم يكن مريحا أبدا.. خاصة بعد أن دخل دون استئذان ومد يده مسلما عليها وهو يقول:
-اظن أنك ريم.. أليس كذلك؟
شعرت هدى أن هذا الشاب هو شقيق ريم.. قفزت مسرعة اليها وهي تعلق الامال عليه في تغيير الامور الى الافضل..

كان هادئا افطار الصباح في بيت عصام.. بل حتى أن العيون لم تتلاق..
فعصام يعلم تماما أن أمه وحمزه غاضبان جدا مما فعل.. ولكنه برر موقفه مرارا ولا حاجة لان يضيف على ما قاله شيئا.. فقد كان يغلب على ظنه أنه لو لم يغب في السجن طويلا لما تركته امه في البيت بعدما فعل ما فعله..

لم تجد ريم مبررا واحدا لوقوف أخيها امامها ساكنا لا ينم وجهه عن أي انفعال يظهر السرور.. فتذكرت وجه عصام في أخر لقاء بينهما.. نفس العيون والانفعال ..لم تتقدم خطوة.. فقد تعلمت أن إحساسها بالاشياء يجب أن يقودها الى التصرف الصحيح ..لكن الفرق الوحيد بينه وبين عصام أنه تقدم مسلما عليها ببرود أحزن هدى وأقلقها فانعكس على الجدة وجلست مثقلة بالهموم التي تتراكم على ريم دفعة واحدة.. مما أغضبها ودفعها لان تصرخ قائلة:

-هل غبت عشرين عاما حتى تأتي وتستقبلنا بهذه الطريقة يا وليد؟

ابتسم وليد نصف ابتسامة مصطنعة ونظر الى جدته ..حضنها بتكلف واضح.. فابتعدت عنه نافضة يديه وهي تنظر الى ريم التي اخذتها الدهشة .. سكنها افق مليء بالالم الممزوج بالاشمئزاز.. ضحك وهو يحاول الاقتراب مجددا من جدته ثم قال:

-لا تنس يا جدتي انني لم أركما منذ وقت طويل.. حتى أنني لا أعرف شقيقتي ريم..

أشاحت الجدة وجهها الى الجهة الاخرى وقالت بجدية:

-وهذا ما يجب ان يدفعك الى الشوق والمحبة لا الى الجفاء والتعجرف..

بدا الغضب مسيطرا على وجه وليد وهو يجول بين جدته وريم وكأنه يخفي ورائه حديثا طويلا فهمته الجدة وهويقترب من ريم قائلا:

-كنت أحمل كل هذه الاشواق وتبخرت حين..

توقف وليد فيما كانت العيون تتجه اليه وهو يهم بالحديث لولا ان صرخت الجدة قائلة:

-حين علمت ما فعلته ريم..

جلست ريم وهي تتذكر كل شيء في ثوان.. على الرغم من ان الجدة لا تعرف شيئا الا أنها كانت امام وليد تقف بقوة وهي تقول:

-وماذا فعلت ريم؟ هل تكافئها على أنها أوكلتك بحصتها في البيت بعدما وعدتها بحياة هانئة مستقرة؟..

الكثير من المشاعر المختلفة سكنت وجهه وهو يدور حول جدته قائلا:

-بل أقصد ما فعلته مع سالم..

الى هنا لم تعد الجدة تفهم شيئا.. فهي لا تعرف ما حصل.. لذا كانت تنقل نظراتها بين هدى الحزينة وريم الغاضبة وهي تحاول حل اللغز الذي يجمع بين ثلاثتهم فقالت:

-وماذا تريد الان؟

صارت تنكشف اسارير وليد تدريجيا وهو يشعر بسلسلة من الانتصارات تتالى ثم قال:

-لا أريد شيئا يا جدتي ..إنما من حقي معاقبة شقيقتي التي تتعاون مع الاحتلال..

نظرت ريم والدموع تخنقها الى شقيقها ثم صرخت بإنفعال شديد وهي تقول:

-انا لم أفعل شيئا.. كل جريمتي أنني أحببت خطيبي وأردت الدفاع عن حبي له.. لقد أخطات التصرف فعاقبني.. ويكفيني عقوبته لي.. لقد ذبحني وجعلني اشلاءا اسير بجسد انسان..

كل الدموع التي ذرفتها ريم أراحت هدى قليلا وهي ترى صديقتها تقف أمام الحقيقة القاسية بعد أن هربت منها طويلا..صمتت وهي تضم وجهها بيديها المرتعشتين.. فهال منظرها جدتها وهي تبكي بحزن على حفيدتها التي ضمتها سنين طويلة فلم تحب احدا سواها.. وكان هذا سببا في صراخ وليد

بصوت مرتفع وهو يقول:

-ينبغي أن أعاقبك أنا كذلك على خيانتك للوطن..

كلمة قاسية هزت مشاعر الجميع وهم يستسلمون للألم والحزن فيما شعرت ريم بأن رغبتها في الموت أصبحت محتمة الان.. فقد حملتها قدماها وهي تغادر المكان لا تنظر خلفها ولا تسمع صراخ الجدة وهي تقول:

-الوطن.. وهل تعرفه؟ غبت عنه عشرين عاما حتى نسيت اسمه..

نظر وليد بغضب لم تستطع هدى أن تبرره وهي تلحق بريم.. فعلا صوته مجددا وهو يقول:

-يجب أن تعلمي تماما أن ريم لا مكان لها هنا بعد اليوم..

الاحتلال منتشر اليوم في القرية مع بداية الليل ليملأ المكان زخات من الرصاص الذي أثار الخوف في نفوس الجميع الا ريم.. التي سكنت في فراشها تأخذ الدهشة معالم وجهها وتتركها أنفاسا دون جسد.. كان الرصاص يقترب من بيتها.. مما أخاف جدتها التي ركضت نحوها ريم واحتضنتها.. لم يكن هناك مبررا للرصاص.. فاليوم حظر تجول.. إلا أنه استمر حتى أشرق صباح اليوم التالي.. فانتهى ومعه أنتهى حظر التجول..

فتحت ريم باب بيتها وقد سمعت أصواتا مزعجة أثارت خوفها.. لتقف أمام بيتها وقد توشح بالدم.. كل شيء سكن في لحظات.. دماء من هذه التي تجري كشلال مليء بالالم؟ أغلقت عينيها بينما كانت دقات قلبها تتسارع وقد غفلت عن أنها تقف أمام ام عمر التي سقطت ميتة بإبتسامة صغيرة.. لعلها كانت تنوي اهدائها الى ولدها حين تمنت أن تكون أخر من تراه..أما دموعها الهادئة فهي حلة توجت بها عينيها الغاضبتين.. من كانت تنتظر؟ بالتأكيد عمر ..الذي نسجت له بدمها وردة هي عمرها الذي انتظره سنين طويلة دون عودة.. أجلت ريم زمانها وهي تهوي على ام عمر تبكي وتبكي وكأنها تلومها على أنها رحلت وحدها دون أذن.. لم يجرؤ أحد أن يحتضن ام عمر سواها.. فهي التي إختارتها لتتكلم معها ذات يوم فتنسيها هم رحيل عصام عنها.. أما الان فقد ذهبت بعد انتظار خمس عشرة عاما.. جميع من في القرية كان يحيط بريم وأم عمر فقد جمعهما حزن واحد وألم قاتل وحبيب لن يعود..

-عصام..

كان هذا النداء المتكرر لعصام من أمه وهو يهوي بجسده على السرير لاتفارقه صورة ام عمر وريم بعد غياب طويل عنهما ..كانت يداه الممتدتان خلف رأسه تريحه من عناء التفكير القاتل.. استنشق هواءا مليئا بالحزن ولبى نداء امه التي أكملت قائلة:

-هل أعجبك ما فعله شقيق ريم؟

عاد عصام واستنشق بغضب قلقه ثم قال:

-هذا أمر لا يعنينا..

-لكنك أنت السبب..

نبرة الام القاسية أجبرت عصام على النهوض بغضب وهو يقول:

-لماذا يا أمي؟

-لانك جعلتها لقمة سائغة للجميع..

-أمي أرجوك..

-أنا أعلم تماما أن وليد استغل ما حدث ليطرد ريم من البيت ويستفرد به.. فهو لا يمكن أن يقنع أحدا بأنه يحب وطنه وحزين لما فعلته ريم..

لم تكن تعلم والدة عصام أثر كلامها على ولدها الذي كان يمزق قلبه ويقسمه الى أجزاء.. فهي ريم الحبيبة التي لا يساويها أحد في قلبه.. لكنه الزمن يفرض علينا ما لا نطيق لتنتهي كل الاشياء الجميلة كلمح البصر..

أيام طويلة مرت على ريم بلونها الاسود.. كان يجب أن تنتهي.. حاولت كثيرا أن تخرج من حجم الالم الذي يحيط بها.. حاولت مرارا لكنها لم تستطع.. فهي فقدت حبيبها وشقيقها وأم عمر.. كذلك ستفقد جدتها وبيتها وقريتها ..فماذا تفعل؟ تبكي؟ وماذا يمكن أن يفعل البكاء حين تكون كل الكلمات أكبر منه؟

تستسلم للألم؟ إذن فالموت أفضل لها بكثير.. فقد آثرت أن تصمت وتبني جبالا من الخسارة في قلبها لعلها تنتهي حياتها بسرعة وتنتهي معها كل الاحزان.. ومن هنا قررت البداية ..

وقفت أمام محل ماجد بعد طول غياب عن القرية.. تبدو شاحبة لكنها تتصنع الابتسام ..من السهل على الجميع ان يقرأ في عينيها قهر وغضب وحزن طويل.. هذا ما رآه ماجد حين نظر اليها مبتسما وهو يرحب بها.. فتفاجأ بأنها تمد له ورقتين قائلة:

-هل لك أن تضع لي إطارا زاهيا لهاتين الورقتين يا ماجد؟

كرر ماجد النظر إليها مرارا وقلبه يدق بسرعة حزنا عليها.. كانت تعلم حجم دهشته وما يحمل من إستغراب.. أعاد نظره إليها وقال:

-ولكن يا ريم.. هاتان الورقتان إحداهما ورقة فسخ خطوبتك والاخرى تحرمك من حقك في البيت..

ضحكت بسخرية وهي تهز رأسها معقبة على حديث ماجد:

-وهل علينا ان نؤطر أفراحنا فقط؟ لماذا لا نؤطر أحزاننا أيضا فلعلها تنتهي كأفراحنا تماما..

لم يرفع ماجد نظره عن الاوراق وهو يعلم تماما أن الدموع تحيط بعيني ريم.. فصوتها تحول من الهدوء الى الغضب.. ثم غادرت ومشت خطوات لترقب عصام وهو منهمك بتحضير محله الجديد.. ابتسمت تاركة المكان كله وتاركة قلبها الذي يهمس لعصام أنه لا يحسن العيش لحظة دونه..

كان الجميع ينتظر رحيل ريم.. حتى عصام الذي كان كعصفور ذبح وترك ليموت ببطء قاتل.. لم يكن يعلم أحد ما يجول في قلبه كحمزه الذي رقبه مرارا قبل أن يقترب منه ويقول:

-عصام.. هل هناك ما يزعجك يا اخي؟

كان عصام يجلس على كرسيه بكثير من الاسى والغضب الا أنه لم يجرؤ على البوح بما في نفسه.. فابتسم ونظر الى حمزه قائلا:

-أبدا ..إنما كنت افكر فيما فعله وليد.. أعتقد أنه فعل حقير..

-حقا! هل أشعرك بالذنب؟

أثارت كلمات حمزه المستهترة حنق عصام وقد توقف عن الحديث لولا استفزاز حمزه الذي أكمل قائلا:

-ريم ضحية.. فلا أحد يعلم أين ستذهب.. وأين سيكون مآلها؟ لعل وليد لو تأخر يوما واحدا لما تركت ريم ابدا..

كل كلام حمزه الذي سمعه عصام كثيرا.. لم يعلق منه الا ذاك المكان الذي ستأوي اليه ريم بعد رحيلها المجهول..

أيام قليلة كافية لأن ينتهي كل شيء ..فقد حانت لحظة رحيل ريم.. والجدة تركت البيت بعد شعورها بالحزن على رحيل حفيدتها ..أما هي فقد جهز لها عصام غرفة في بيته لتسكنها.. كل العيون كانت تتجه لذلك البيت الذي تغير ما فيه في أيام قليلة.. حملت ريم حقيبتها وجلست أمام جدتها الحزينة التي أتعبها البكاء وقتلها الفراق.. حاولت أن تعصر قلبها وتقبض على دموعها لتخفف ما تعانيه جدتها.. ابتسمت مرارا ودموعها تدق عينيها بقوة.. ثم قالت:

-جدتي.. أرجوك لا تحزني ولا تقلقي علي.. سأكون بخير.. أعدك بذلك..

حملت الجدة يدها المثقلة بالهموم ورفعتها لتداعب شعر ريم الذي عاش

معها سنين طويلة.. الفرح والطفولة.. الحزن والصبا.. وألوانا من الايام الجميلة التي جمعتهما.. حين لم تكن تصمت ريم الا حين ترى الشمس مشرقة.. وحين بدأت تكبر ومعها تكبر أحلامها الخائفة من الاحتلال..لكنها قاومت وعاشت لتنتهي بها الايام الى هنا ..أمام جدتها.. ولتفترقا بعد أن تركتا البيت الذي تحبانه كثيرا.. فالدموع غلبتها وهي تقترب من ريم قائلة:

-أين ستذهبين يا ريم؟

-لا أعرف يا جدتي.. كل ما أعرفه هو أني أحبك كثيرا.. وأني لن أنساك أو أتركك أبدا..

كأن الواحا من الزجاج تناثرت على جسد ريم وهي تقف أمام بيتها تنظر الى قريتها دفعة واحدة.. ورغم أنها لم تكن تر أحدا.. لكنها مع كل خطوة تخطوها كانت تترك ذكريات تؤلم قلبها وتفتت آهاته المكبوتة..

هنا صديقاها المقعدان تراهما كل يوم يسابقان الفرح والسعادة.. هناك أبو علي بأزهاره اليانعة التي عاشت في كنفها سنين طويلة.. ذاك بيت هدى صديقة الطفولة وتوأم الروح..

وهذا بيتها الذي غادرته فتركت جدتها وحيدة لا تملك سوى الدموع سلاحا للايام.. أما من يسكن ذاك البيت.. فهي لم تنظر اليه.. كانت على يقين أنها ستضعف لو نظرت برهة.. كم كانت جبانة.. خائفة ..تائهة.. لا تعرف من أين تبدأ والى أين ستنتهي؟ تمشي خطوة لتعود ثلاثا.. تودع قريتها وتعلن عدم قدرتها على تركها دقيقة.. فكيف لها أن تتركها زمنا؟ قطرات الشتاء كانت تغطيها وهي مثقلة بخطوات قاسية الى المجهول.. لعل الشتاء كان يواسيها..

نظرت الى السماء المكتحلة بلون الغيوم القاتم.. إبتسمت بحزن وداعبت رذاذها قائلة:

-سامحتك أيها الشتاء.. وكذا سامحت قسوتك علي هذا العام.. فقد انتهى كل شيء.. لقد أعطيتني منذ كنت صغيرة ومنحتني دفئك ورائحة التراب العبقة بك.. كنت تغطيني دوما بحبك.. وها أنا الان أقف تاركة كل ما أحب ورائي.. فلو تمنحني أشجار الزيتون لترتحل معي.. هي فقط.. لان فيها بدأت حياتي اول مرة.. اترك لك حبيبا ..إحفظه وأسقط أمطارك الهادئة عليه.. إصنع له مطرا دافئا يحيط به فيحميه من بردك القاسي..

كل الهدوء كان يسكن وجه ريم وهي ترتحل.. لم تنظر خلفها لئلا ينتزع قلبها.. مشت خطوات كثيرة قبل أن تصعد الى السيارة وهي لا تعلم ابدا أن ثمة عينين عاشقتين لها صاحبتا طريقها قائلتين لها وهي تختفي عن الانظار الى المجهول:

-أقادر على أن تمد يدك فتمسح أحزاني أيها الفجر؟ أقادر على أن تلملم اشواقي؟.. حزين أنا.. كحمامة غافلتها خيوط الشمس عند الاحتضار ..أنت يا أيها الفجر تمهل قليلا.. ففيك الزمان يطوي الافراح والأحزان في نهر حياتنا المبدوء بالكلمة والمنتهي بأحرف السماء.. أذكر أن لي قلبا كقلوب العاشقين يخفق دون إذن أو زمان.. فإن قضيت قبل من أحب.. فاذكر ولا تنس أبدا أنه هو وحده الجوهرة التي قابلتها بعد عناء طويل..

شعرت ريم وهي تطرق الباب بقوة أن الشتاء في هذه القرية جافا وقارصا عوضا عن أن ليس له صديق.. فقد استغرقت في رحلتها حتى وصلت ساعة ونصف.. لكن ماكان هذا الذي يشغلها ..بل تلك المرأة التي ستفتح لها الباب

الان.. بضع دقائق وكانت تقف أمامها.. رفعت ريم شعرها المبتل لتخفي آثار الأرق والتعب المرير وقالت بصوت خائف:

-صباح الخير..

عيون تلك المرأة التي كانت تحدق بريم قاسية وصلبة وتنم عن أنها إمراة صخرية لا تحمل مشاعر ولا تحوي في قلبها معنى للحب.. نظرت بتمعن وقالت بصوت خشن:

-ما الذي جاء بك؟

ما كانت تفكر فيه ريم قد حدث.. لم يرحب بها أبدا.. حتى أن تلك المرأة لم تفكر في حمايتها من المطر الغزير.. تنهدت بألم ونظرت مجددا اليها ثم قالت:

-هل أستطيع الدخول يا خالتي؟

إنها زوجة أبيها.. المرأة التي احتلت بيت أمها وأخذته عنوة.. وكانت هذه المرة الاولى التي لم تغضب فيها ريم منها بعد ان استصغرت ما فعلته أمام ما فعله شقيقها..

إلا أن تلك المرأة الحديدية لم تشفق لحال ريم.. بل بادرتها قائلة:

-لا لا يمكنك الدخول.. قولي ما تشائين عن الباب..

إتكأت ريم هنيهة على الباب وتنسمت هواءا مليئا برائحة الشتاء وظلم الاحتلال.. ابتسمت معلنة هدنتها مع زوجة أبيها وقالت:

-في الحقيقة يا خالتي أنا أريد العيش معك.. فلم يعد لي أحد في هذا الكون..

صوت ضحكة تلك المرأة أزعج ريم وهي تهم بإغلاق الباب كي لا تسمع المزيد من المهاترات.. إلا أن ريم أحالت بيدها إغلاقه ونظرت متوسلة اليها وهي تقول:

-أرجوك.. إسمعيني ثم إفعلي ما تشائين..

-أين شقيقك يا ريم؟

-لقد طردني من البيت..

-حقا! وجدتك الحمقاء؟

في كل لحظة كانت تهم ريم فيها بالبكاء وهي ترى نظرات التشفي واضحة في عيني زوجة أبيها لكنها كابرت على نفسها حتى تعيش في هذه الحياة الضيقة جدا.. فقالت بقهر:

-جدتي سكنت عند جيراننا..

-أمر غريب.. لقد سمعت أنك تحضرين نفسك للزواج.. فما الذي حدث؟

أبعدت ريم عيناها عن عيني خالتها وأجابت بسرعة:

-لقد فسخت عقد الزواج وانتهى الامر..

هزت زوجة أبيها رأسها وهي تشعر بالنصر لمصائب ريم ثم قالت:

-إذن اسمح لك بشروط..

أومأت ريم برأسها وهي تستعد لسماع شروط خالتها التي أكملت قائلة:

-أولا: عليك ان تعملي حتى تنفقي على نفسك ..

ثانيا: تعطيني نصف راتبك مقابل طعامك واقامتك..

ثالثا: بعد عودتك من عملك تستكملي أعمال البيت عندي..

وأخيرا.. يوم الجمعة كاملا منذ الصباح حتى المساء تتكفلين بأعمال البيت كاملة.. إذا لائمتك الشروط فتفضلي والا فغادري لأني بدأت أشعر بالبرد..

حاولت ريم أن تبتسم أو تبكي أو تنفعل.. لكن البرد تخلل أوصالها فقطع كل المشاعر في نفسها.. معلنة رغبتها في الاستلقاء ولو للحظة واحدة..

واخيرا كان اللقاء.. في محل عصام الهاديء.. بينه وبين سالم.. الذي شق حياة عصام الى نصفين.. وفي لحظة عبث بزمانه وأحلامه فغيرها لتبدو مستحيلة في هذا العالم الغريب ..كان سالم يفرض نفسه بقوة فيما كان عصام يتجنبه ليبدو منهمكا بأعماله الكثيرة.. إلا أن صوت همساته وضحكاته أثارت إهتمام عصام كثيرا.. فنظر بغضب قائلا:

-ماذا تريد؟

جلس سالم على كرسي دون استئذان وهو يهم بالحديث قائلا:

-جئت اطمئن على حالك بعد رحيل ريم يا صديقي..

نظر عصام بغضب الى سالم وصرخ في وجهه قائلا:

-اخرج الان يا سالم.. فأنا لا ارغب برؤية وجهك أو سماع صوتك..

وبصعوبة احتمل سالم غضب عصام وابتسم قائلا:

-مهلا.. مهلا.. فلدي ما اقوله لك..

-لا أريد سماع أي شيء منك.. فمنذ ولدنا ليس لدينا ما نقوله لبعضنا.. هل تفهم؟

كان وجه سالم يتغير الى الضعف والحسرة وهويستمع الى عصام وكأن كلامه أثار كثيرا من الشجون في نفسه فقال ساخرا:

-لعلك لو إستمعت إلي منذ زمن لما كان هذا حالنا.. أنت بطل شجاع ..وأنا....

أوقفت كلمات سالم عصام لينظر إليه بكثير من الاستغراب والدهشة وكأن سالم يبدو شخصا أخر وهو يحلق بعينيه في أرجاء القرية قائلا:

-إذا كنت تعتقد أن وحدك من يحب وطنه فأنت مخطيء.. لأنني أحبه مثلك تماما.. لكن لكل واحد منا طريقته في التعبير..

حاول عصام أن يتجنب الحديث.. فعاد الى عمله مجددا لولا أن فاجأه فعل سالم الذي أخرج من جيبه شيئا وألقاه على الطاولة أمامه قائلا:

-هذا المال الذي أعطتني اياه ريم.. أعيده إليك لعلك تغفر لها.. فهي تحبك كثيرا..

أوقفت الصدمة عصام ..فقد عجز عن فعل شيء سوى التحديق بسالم والمال الذي تركه مبتعدا عن الانظار..

هي أيام قليلة وكانت ريم قد تعرفت على شقيقتها.. سلمى ..الهادئة.. ذات الطبع الخجول والتي لا تشبه أبدا أختها هبه ولا أمها ذاتا الصفات الواحدة.. كانت تشاركهم غرفة واحدة في بيت قضت فيه ريم بضع سنين من عمرها لا تذكرها تماما إلا أنها كانت على يقين بأنها ستكون اهدأ بالا فيه رغم عجرفة خالتها القاسية..

في النهاية قد وجدت لها عملا مناسبا في محل أزهار جميل.. أعاد لريم ذكرياتها الكثيرة في محل أبي علي.. فهي تخبر الازهار تماما والتعامل معها فقد كانت تضمها في قريتها لتدفع ثمنها حرية عصام الذي غادرها دون استئذان.. كل يوم كانت تتجدد فيه الذكريات لتصبح ألما جديدا ينتهي بعودتها الى البيت.. لم يكن وجود صديقتها فاطمه كافيا لتنسى فيه تلك الذكريات.. فهي على يقين بأنها لن تصادق فتاة كهدى ولن تحب أحدا كعصام..

كانت لحظات سعيدة تلك التي جمعت بين سالم وعصام مجددا وهو يقف على باب بيته.. شعرت والدة سالم أن هذا اليوم كعرس جميل أو فرحة لن تتكرر ..فكم يوما تمنت لو أن عصام إبنها أو أن سالم يغدو مثله.. يحبه الجميع ويشيرون اليه بالبنان.. وعلى عكس ما تخيل عصام.. فقد رحب به سالم ترحيبا عظيما يليق به.. إلا أنه اعتذر بسبب انشغالاته الكثيرة.. كان وجهه يحمل الكثير من المجاملات لوالدة سالم وله وهو يهم بإعادة ذاك

المغلف الذي قدمه له سالم قبل أيام.. ابتسم سالم بخبث ومسح شاربيه ثم قال:

-ولكن يا عصام..

الا ان عصام استطرد بيده كلام سالم وقال بجدية:

-إذا رغبت بإعادته فأعده الى صاحبة الشأن وليس لي..

-لكنكما واحد ..

-أبدا.. نحن لسنا كذلك..

-حقا.. ما دمتما لستما كذلك فأرغب في أن اطلب منك طلبا..

كانت لهجة سالم الساخرة مثار اهتمام عصام الذي نظر اليه مرارا وهو يرغب بالاستماع قائلا:

-أريد أن أخطب منك ريم..

للحظات توقفت أنفاس عصام قبل أن تزفر عن غضب شديد وتطاير بقهر من عينيه.. استطاع سالم بسهولة أن يعرف حجم الخبر القاسي الذي ألقى به على مسامع عصام.. فكان من الطبيعي أن يتركه ويخطو بضع خطوات ثقيلة وبعيدة لا يعلم أحد أين ستكون؟..

كأس الشاي هو وحده من يكسر برد الشتاء في قلب ريم حين كانت تحتضنه في فراشها لتغفو على بقاياه.. وهذا حالها كل يوم.. الا أن سلمى التي أزعجت ريم هذا اليوم أبقتها ساعة اضافية تبادلتا أطراف الحديث الذي بدأته سلمى قائلة:

-ريم.. أخبريني عن إسم خطيبك السابق..

أثار سؤال سلمى عاصفة من الحزن في نفس ريم ظنت أنها دفنتها خلف

الاسابيع الثلاثة التي باعدتها عنه.. فابتلعت أخررشفة من الشاي وقالت:
-عصام..
شعرت سلمى أنها أزعجت ريم بعض الشيء.. فصمتت لولا تدخل هبه قائلة:
-ولماذا تركتما بعضكما؟
لم تقل ريم شيئا بل اضجعت على فراشها وغرقت في ذكريات حزينة شعرت بها شقيقتها فتداركت سلمى قائلة:
-نعتذرعن إزعاجك يا ريم..
ابتسمت ريم وأشاحت وجهها مظهرة انتهاء الموضوع الذي ابكاها طوال الليل..

كان صباحا سيئا ذلك الذي بدأ به عصام يومه وهو يحضر القهوة بعبثية واضحة لاحظها حمزه الذي كان يقف وراءه ملقيا تحية الصباح.. ثوان مضت افسدت تلك التحية التي رد عليها عصام بإيماءة من رأسه.. نظرا الى بعضهما لحظة أتبعها حمزه بقوله:

-منذ رحيل ريم وأنت تبدو عصبي المزاج يا أخي..

ضرب عصام بيده الطاولة وهو يبادر شقيقه بالصراخ قائلا:

-لا شأن لك بي أبدا ولا تتدخل في أي موضوع يخصني.. هل تفهم؟

أخافت لهجة عصام حمزه.. لكنه اقترب منه بحنو قائلا:

-أنا أسف.. إنما كنت أمازحك فقط..

-أنت تمازحني بريم.. وسالم يمازحني عن ريم ..وكذلك أمي وكل القرية.. ماذا تريد أن أفعل حتى أقنعكم أني لا أحبها وأنها لم تعد تعني لي شيئا.. أرجوكم أفهموا هذا..

حاول حمزه أن يكتم ضحكة كانت ستودي بالامور الى الاسوأ لولا أن قال بهدوء:

-أنا أسف نيابة عن الجميع.. إنما جئت كي أخبرك أن الجدة لم تأكل بالامس وحالتها الصحية بدأت تتراجع..

توقف عصام لبرهة وهو يتذكر أنه لم ير الجدة منذ يومين.. فترك ما في يديه وتوجه اليها في الحال ليقف أمامها بعد ان دخل غرفتها بأدب جم.. كانت هادئة حزينة.. لا يبدو عليها رغبة في الحديث.. نظرت الى عصام الذي جلس مداعبا لها وهو يقول:

-سمعت أنك لم تأكلي بالامس.. لذا يبدو أنني سأغضب كثيرا..

حركت الجدة عصاها ونظارتها بألم.. نظرت الى عصام وقالت بتعب:

-أخبرني حمزه أن وليد يريد أن يعيدني الى البيت ويسكنني معه وأنا لا أريد بيتا لا أثر لريم فيه..تنهد عصام مبتسما وهو يمسك بيد جدته ليضمها بدفء اليه ويقول:

-لا يا جدتي.. اطمئني.. ستبقين عندي مكرمة وعلى أحسن ما يكون..

أسعدت كلمات عصام الجدة وهي تهم بالحديث قائلة:

-كم يوما بقي حتى تأتي ريم لزيارتي؟

وفي أقل من ثوان قال عصام بسرعة:

-أربعة ايام..

وما أن أنهى كلامه حتى سمع صوت تنحنح حمزه من خلفه مشيرا الى ان عصام يعد الايام ألف مرة للقاء ريم.. وهذا كان أهم الاسباب التي دعته للتمسك بالجدة..

كانت ريم تنهي سقي الازهار بالماء.. وأثار كثير من المشاعر تختلط في وجهها بينما كانت فاطمه تناديها بهدوء.. لم تترك ما في يديها ولم تنظر.. بل كانت تعد نفسها لسؤال فاطمه قائلة:

-بعد غد ستذهبين الى قريتك أليس كذلك؟

عضت ريم على شفتيها ونظرت الى صديقتها لتهز رأسها بالنفي مما أغضب

فاطمه فقالت مجددا:

-لكنه أخر خميس في الشهر و.....

-لا تنس يا فاطمه أنني لم أستلم راتبي بعد..

-وجدتك؟

-سأذهب اليها الشهر القادم حين تتحسن ظروفي المادية قليلا.. فأنا بشوق لها وللقرية..

أنهت نبرة ريم الغريبة الحديث مع فاطمه المتسائلة عن أشياء كثيرة لم تجد لها جوابا..

مضى يوم الخميس ثقيلا.. كريها.. مخيفا للجميع.. فلا أثر لريم ولا أحد يعلم عنها شيئا ..حتى سكناها.. كانوا يعتمدون على هذا اليوم ليعرفوا كل شيء.. دون فائدة.. كان الجميع يقضي اللحظات بالترقب.. فالشعور بالذنب يسيطر على أهل القرية.. وهذا ما كانت تخشاه ريم.. لكن قلة حيلتها أصمتتها وأغلقت التفكير في عواقب هذا الامر الذي أحزن وأقلق الجميع..

هو صباح يشبه باقي أيامنا التي تتأخر دقائق لتكون الاصعب.. وكذا كان ذاك الصباح الذي إفتتحته هدى بوقوفها أمام بيت عصام لحظة خروجه.. إبتسم فكان زمنا طويلا يسكن وجهه الذي لم يشاهده أحد مبتسما منذ وقت طويل.. تبادلا تحية الصباح فيما كان يمعن النظر في هدى.. الوجه الاخر لريم الحبيبة.. وهي تبادله النظرة ذاتها حين شعرت أنها لم تعد ترى صديقتها الا في وجه عصام.. تنحنحت هدى قليلا وقالت بصوت دافيء:

-هل ثمة أخبار عن ريم؟

رفع عصام كتفيه في تعبير عن خيبة الامل قائلا:

-كلا.. بإستثناء ما قالته الجدة..

-وماذا قالت؟

-أخبرتنا بأن ريم قد تكون عند زوجة أبيها..

ابتسمت هدى سعيدة وقد ضمت كلتي يديها الى بعضهما قائلة:

-وأيت تسكن زوجة أبيها؟

-لا أحد يعلم..

عادت الحيرة تفرض نفسها مجددا عليهما بعد أن أغلقت كل الطرق في معرفة حال ريم.. الا أن عصام كان يطمئن الجميع بأنه سينتظر الخميس الاخير من الشهر القادم حتى يبدأ بالبحث عنها..

كلألىء جميلة أخفت ريم فرحتها بالمال بين يديها رغم قلته.. فقد بدأ الامل يعود اليها في العودة الى القرية ثانية لرؤية جدتها.. كانت فاطمه تسترق النظر إليها وهي تقسم المال لعدة أقسام سعيدة فرحة بما لا تعرفه هي.. إقتربت مجددا منها وهمست بصوت خفي:

-ماذا تفعلين يا ريم؟

رفعت ريم نظرها وقد نسيت وجود صديقتها قربها فقالت بمرح لم تعهده فاطمه من قبل:

-أقسم راتبي كما ترين..

-وكيف تفعلين ذلك؟

ضحكت وهي تجمع الأجزاء الاربعة القليلة من راتبها ثم قالت:

-نصفه لخالتي كما إتفقنا.. والنصف الاخر مقسم لثلاثة أجزاء.. جزء لمصروفي وجزء لجدتي فلعلها تحتاج الى الدواء..

صمتت ريم فيما كانت فاطمه تنظر إليها بشغف وتقول:
-وأخر جزء يا صديقتي؟
أظهرت ريم وكأنها لا تسمع ما تقوله صديقتها التي ألحت مرارا على السؤال فقالت بضجر:
-إنه سر ..ستعرفينه فيما بعد..
نظرت فاطمه لصديقتها بعفوية وهي تتمنى ان تعرف الكثير فيما هي لا تعرف شيئا.. فحرصت أن تتحدث في الموضوع بشكل أخر قائلة:
-وهل ستنتظرين ثلاثة أسابيع أخرى حتى تذهبي الى قريتك؟
ابتسمت وهي تتنفس الهواء بسعادة كبرى ثم قالت:
-كلا.. سأحاول الذهاب قبل ذلك.. فلعل عصام يسمح لي برؤية جدتي..
كان الضجر واضحا على معالم فاطمه التي زادها الحديث تعقيدا.. فيما شعرت ريم أنها قد وصلت الى بداية الضوء حين سألت فاطمه عن عصام فأشاحت وجهها بحزن بعد يوم سعيد مميز..

رائحة الطعام في بيت عصام تملأ المكان.. بينما حمزه يضايق شقيقه بأحاديث شقية لا تروق له.. فما كان لعصام مفرا لا المطبخ بحجة مساعدة والدته.. لكن هذا لم يكن يثني حمزه عن إزعاجه وهو يقول:
-عصام.. إن أسديت لك خدمة هل تكافئني؟
غرز عصام أصابعه في شعره الاسود الكثيف غير مبال بكلام حمزه الذي كرره قائلا:
-إن أعطيتني مفاتيح السيارة سأبحث لك عن ريم ..
نظر عصام مخفيا إبتسامة سيطرت على وجهه الى شقيقه الشقي.. وإقترب

منه قابضا على كفه بقسوة لم تؤلم حمزه ثم قال:
-أعتقد أنها صفقة خاسرة.. لأنني لا أرغب بمعرفة شيء عنها..

ترتيب الطعام على الطاولة أنهى كلام الشقيقين فيما كان الانزعاج باديا على وجه حمزه وهو يتحرك بإتجاه الباب ليفتحه بعد طرقه عدة مرات ..كانت الساعة تقارب الرابعة مساءا.. الجو هاديء.. لطيف على الرغم من برودته قليلا ..كان عصام ووالدته يجلسان على المائدة بإنتظار حمزه الذي تسمر لدقائق وقد بدا على وجهه الدهشة والاستغراب لا يقول شيئا.. بل حتى أنه لم يرحب بالضيف.. وقف عصام وقد إنتابه القلق.. خطى عدة خطوات ليكون اللقاء.. معها.. تلك التي غيرت بعينيها الزمن فلم يعد له اهمية ولا للمكان.. حين إلتقت عيناهما للمرة الاولى بعد غياب طويل ..همسا لبعضهما بأشياء كثيرة لم يسمعها أحد سواهما.. حتى حدقات عيونهما التي لم تتحرك أبدا.. كانت سعيدة.. تتشاطر الشوق والحب كأشجار الزيتون التي صفقت طويلا لشتاء يلفظ أنفاسه الاخيرة.. إبتلعت هي بعض قطرات المطر التي علقت بفمها لتمحو اللهفة التي كانت تقسو عليها فيما حرك هو عينيه بين حمزه وأمه ليتدارك ما حصل.. أما حمزه فقد إبتسم وهو يشير بيده قائلا:
-أهلا وسهلا.. تفضلي يا ريم..

اقتربت والدة عصام وقد عانقت ريم بشدة وقبلتها عدة مرات ثم أخذت بيدها لتدخلها الى البيت.. فيما كانت ريم حذرة من الدخول لولا إصرار حمزه الذي لم تغادر عيناه وجه عصام وقد جلس الى المائدة مجددا وهو يخفي ما في قلبه.. إبتسمت ريم وقد شعرت بالطمأنينة فيما إعتذرت مرات عن تناول الطعام.. قائلة:
-أعتذر عن إزعاجكم في هذا الوقت.. ولكن..

تدخل حمزه بسرعة في حديث ريم ليجيب عن كل التساؤلات التي تدق رأس شقيقه قائلا:

-أبدا يا ريم.. فقد قلقنا عليك كثيرا.. كل من في القرية يسألون عنك.. أين كنت؟

شعرت ريم بقليل من الحرج وهي تستمع لكلام حمزه دون أن تنظر الى عصام أبدا ثم قالت:

-أنا أسكن عند زوجة أبي في القرية المجاورة.. قد حدثت لي بعض الظروف لم تسمح لي بالقدوم قبلا.. وما أن تحسنت حتى جئت.. فهل أستطيع رؤية جدتي الان من فضلكم؟

تحولت كل العيون الى عصام الذي لم يبد اهتماما بما قالته ريم.. حاولت الوالدة التدخل الا أن عصام لم يحرك ساكنا بل كان يتناول طعامه بهدوء وريم على مرمى عينيه تجلس منتظرة جوابه الذي تأخر كثيرا قبل أن يقول بجدية:

-لن أتكلم في هذا الموضوع حتى أنهي طعامي..

عدلت ريم جلستها لتخفي إنزعاجها.. حاولت أن تكرر التجربة مرة ثانية في شرح ظروفها فقالت:

-في الحقيقة وقتي ضيق جدا.. علي أن اغادر قبل الساعة السادسة.. ثم أنني..

أثارت كلمات ريم حنق عصام وقد توقف عن تناول الطعام موجها لها نظرات قاسية قائلا:

-وقتك ضيق.. ظروفك صعبة.. وتأمرينا بأن ننفذ أوامرك في الحال.. لماذا تأتين إذن؟

شعر الجميع بقسوة عصام فيما إحتملتها ريم قليلا ولم يغادرها الشوق والهدوء فأجابت:

-أنا..

-أنت أخللتي بالإتفاق.. وليس من حقك أن تفرضي علينا ما ترغبين..

وصلت ريم الى طريق مسدود فزرعت نظراتها في الارض حزنا فيما كانت الوالدة مع حمزه يحاولان تخفيف التوتر قليلا.. وقفت ريم أخيرا لتدفع الدموع التي تسيطر عليها من كل جانب.. نظرت للمرة الاخيرة الى عصام وقالت بجفاء واضح:

-هذا يعني أنك لا تريدني أن ألتقي بجدتي..؟

وما أن وقف حمزه والوالدة حتى أجاب عصام بجفاء اكثر:

-قلت لك أنني لن أتحدث في الموضوع قبل الإنتهاء من طعامي..

وحين شعرت ريم بقليل من الامل جلست ..وهدأت قلبها الذي لم يكف عن التسارع منذ رأى حبيبه القاسي الذي لم يرحمه أبدا..

وكأي يوم إنتهى.. وليس كأي يوم كانت نهايته.. مزيج غريب من الفرح والالم يختلطان في قلب عصام وريم التي أدركت أن كثيرا من الاشياء لم ترها على حقيقتها الا بعد أن إنتهت.. فعلى الرغم من لقائها القصير بأحبابها جميعا وهم يحيطون بالجدة إلا أنها لم تكن فرحة كما يجب.. فهي كانت تبحث عن أي حلم صغير تعيش فيه حتى تتمكن من العودة ثانية لرؤية عصام الذي كان سؤالا واحدا كافيا لان يقلقه طوال الليل..

كأرجوزة صيفية وبحر هاديء كان عصام وريم في ترقب لعشق يجمعهما ويحكم عليهما بالفرقة.. كم كان على العشق أن ينتظرهما حتى يستسلما؟ فالليالي التي كانا يسهرانها باتت تشكو من آهاتهما.. وتلك العيون التي تزين وجهيهما كانت تبكيان حبهما.. فأي زمن هذا الذي كان عليه أن ينتظر غفو الافق وراء الحب كي يلتقيا من جديد؟..

وحين عادت الامور الى نصابها عاد عصام مجددا للدفاع عن وطنه.. فحبه له وعشقه لريم كانا قدرين محتمين عليه ليتمكن من البقاء على قيد الحياة.. كان كثيرا ما يقنع حمزه في حديثهما عن أن السجن زاده اصرارا وقوة واحتقارا لهذا العدو الذي صنع ذاك السجن الممتليء حقدا وألما لا ينتهي ابدا..

في كل صباح يشرق كان عصام يهمس فيه لريم بتحيته ويخبرها كم هو متيم بها وان من يفرقهما الوطن ذات يوم سيجمعهما.. هذا ما كان يفعله كل يوم وهو في طريقه مع ماجد الى عملهما المتجاور.. إلا أن اليوم ماجد نظر بخفاء الى محل عصام وقال بحذر:

-هناك ضيف بإنتظارك..

وبسرعة نظر عصام ليجد شابا يجلس على كرسي حديدي.. كان يبدو واثقا من نفسه وهو يرمي عصام بنظراته المعتادة.. إنه سالم الذي لا يبشر قدومه بالخير.. حين وقف ملقيا تحيته على عصام.. بادله التحية وخطى عدة خطوات حتى أوقفه سالم قائلا:

-هناك سر مهم علي أن أخبرك به..

لم يلق عصام بالا لسالم وقد كان يرفض الحديث معه بهذه الطريقة التي كررها قائلا:

-إنه يخص حبيبتك الغائبة..

أوقفت كلمات سالم عصام وقد نظر اليه بكثير من الغضب ثم إقترب منه مسرعا وقبل أن يفعل أو يقول شيئا أوقفه سالم بضحكته المعتادة وقال:

-مهلا.. قبل أن تقول شيئا أو تغضب مني ..هناك ما يجب أن تعرفه..صدقني..

حاول عصام أن يجمع زمام نفسه.. لكن الغضب والقلق لم يفارقاه.. هو لا يعلم ماذا سيخبره سالم عن ريم.. فهل حدث لها ما يزعج أم أنها وافقت على الزواج منه؟.. تنهد عصام وقد شعر أن العالم كله خرج من أنفاسه ثم قال:

-أخبرني ماذا هناك؟

ابتسم سالم وأعاد رأسه الى الوراء مفتخرا بنفسه ومتعال على من حوله قائلا:

-أريدك حين تلتقي بريم أن تسألها عن راتبها ماذا تفعل به؟

قطب عصام حاجبيه وهو لا يفهم شيئا مما يقوله سالم فرد قائلا:

-ماذا تعني؟

-أعني أنها تخبيء جزءا منه وترسله لابناء الأسرى رغم حاجتها له.. لعلها تريد أن تكفر عما فعلته يا صديقي

لو كان يعلم سالم أثر ما قاله على عصام ما قال شيئا.. فقد هزه تماما كما تهز العاصفة شجرة جذورها مليئة بالحب.. وثمارها غزيرة بالعطاء.. لم يقل شيئا بل ترك سالم وهو يعلم تماما أنه لن يتم عمله هذا اليوم بالشكل الصحيح..

مرت ثلاثة ايام وريم ما زالت تصارع المرض.. تارة تتغلب عليه فتشعر بالراحة المؤقتة.. وأخرى ينتصر عليها فتحزن أن لا أحد في العالم يسكن إليها في هذه اللحظات.. فتعاون فاطمه معها وكذلك سلمى لم يكن كافيا لتواسى كما من الحبيب.. وهذا ما كانت تعزو اليه سلمى تأخرها في التعافي.. فقد جلست الى جانبها تمسح بكف يدها الصغيرة جبينها وتزرع قبلة عليها أيقظتها كعصفور صغير في حضن امه.. كررت سلمى إعتذارها على الازعاج بإبتسامة بريئة وهمس صغير قائلة:

-كيف حالك ياريم؟ أرجوك تعافي بسرعة..

نظرت ريم بحب كبير إلى شقيقتها التي إعتبرتها هدية من الزمن وما تبقى من قلب يحبها.. حاولت أن تنهض إلا أن الالم كان يشدها فتعود إلى فراشها.. لكن ضحكتها الصغيرة المتتالية خففت فيها عن حزن سلمى في رؤيتها على هذا الحال..فقالت:

-أنا بخير يا سلمى لا تقلقي.. قد أزعجتك معي كثيرا يا حبيبتي..

حاولت سلمى للحظات أن تداري دموعها البريئة فردت قائلة:

-ريم أعتذر عما فعلته أمي بالامس فقد كانت قاسية إذ أجبرتك على العمل طوال النهار.. أقسم أنني حاولت مرارا معها لتترك عملك لي إلا أنها رفضت وهددتني بالعقوبة..

هزت ريم رأسها وهي تعلم صدق شقيقتها.. بل كانت تراقب هبه وهي تدخل الى الغرفة ترمقها بنظرات غريبة.. ابتسمت لها كسلمى وطلبت أن تجلس إلى جانبها.. لكن هبه توقفت ونظرت الى ريم وكأنها ترغب بأمرما يزعج حيث قالت:

-من هذا عصام الذي لم تكف عن الهذيان بإسمه طوال الليل؟

كانت هبه تعلم تماما عمق الجرح الذي سببته لريم.. فهي على معرفة بأنه خطيبها السابق.. لكن إصرارها على معرفة غير ذلك جعلها تتسبب لسلمى بالإحراج وهي تحاول كفها عن حديث يزعج ريم ويصمتها طويلا.. لكن هذا الصمت سيطر عليهن جميعا ..لأن ريم لم تكن تنظر الى هبه إلا أنها الوجه الاخر لسالم.. ذاك الشاب الذي قتل كل الاشياء الجميلة في ذاكرة الحب.. وكذلك صوت ضحكتها المستفزة الذي وجه الانظار اليها وهي تقول:

-ما دمت تحبينه الى هذه الدرجة فلما تركته إذن؟ أم أنه هو الذي تركك على الرغم من أنك متيمة به؟

في كل لحظة تمر كانت تزداد ريم ألما وحزنا ورغبة في أن تهرب من أسئلة كثيرة تحيط بها.. لا تريد أن تجيب على أي منها.. لأن كل جواب يمثل سيفا يقطع قلبها الى نصفين..

كل شيء توقعه عصام إلا أن يجد هذا الترحيب الكبير من أم محمود وابنائها.. فقد غلبته مشاعر كثيرة وهو يضمهم ويقبلهم وكأنهم جزء منه.. كان بيته الذي وصفه له أبو محمود مرارا بسيطا.. هادئا ..على تلة مرتفعة الى جانب بيوت ملتصقة ببعضها.. في كل ركن منه كان يسكن ابو محمود بشكل ابناءه وصوره البطولية وكلماته المميزة.. الصمت هو السلاح الاقوى أمام كل الاحداث التي رآها عصام ذاك اليوم.. فقط كان يترقب ضحكاتهم.. أحاديثهم.. صمودهم بعد رحيل والدهم.. على الرغم من صغرهم..حتى ضم ذاك الصغير الذي ولد ولم يره والده.. كتم آهات كثيرة وهو يذكر دموع ابي محمود حين ذكر ابنه قبل موته بلحظات.. لكن نظرات أم محمود لم تفارقه فاضطرته إلى أن يجاملها بإبتسامة هادئة ويقول:

-ماذا أسميتي الطفل؟

وكعادتها أمعنت ام محمود في وجه عصام مطولا.. ترافقها ضحكة صغيرة ثم ردت قائلة:

-على إسم والده ..عصام..

في لحظة واحدة.. شعر عصام أن الكون كله تغير أمامه وهو يستمع لكلام أم محمود.. وكأنه استعار زمنا اخر ومكانا لا حدود له.. نقل نظراته المستغربة بين الطفل ووجه أم محمود وأبي محمود الذي رحل ولم يكن أحد على علم بإسمه.. كانت أم محمود على علم تام بما يفكر فيه هذا الشاب الوسيم.. فقطعت عليه الزمن والدهشة وقالت بحزن رقيق:

-هذا شأن أبي محمود مع من يحب.. فهو أراد أن يميزك الجميع بإسمك وحدك فتكون أنت عصام الذي يعرفه الناس بإسمه البطولي..

ابتسم عصام بدهشة وهو يرفع بصره عاليا ليمنع دمعتين جديدتين على فراق أبي محمود الرائع دوما..

أعمارنا التي تمضي كأوراق خريف تشعرنا بنقصانها.. لا تعطنا الفرصة كي نبدأ عشقا جديدا لا ينتهي.. كان هذا ما يشغل تفكير ريم قبل أن تسمع صوتا حنونا هادئا من خلفها يقول:

-يقول لك أبي هل تباع الازهار في وطن محتل؟

إنها هدى.. التي أغرقت ريم بالعناق والقبل الجميلة قبل أن تبتعد خطوة الى الوراء لترد ريم بلهفة:

-قولي له أن الازهار لا تباع إلا في وطن محتل..

كانت خصلات الشعر المحيطة بوجه هدى تظهر جمالها وراحة فكرها.. بينما كانت المكابرة الواضحة في عيني ريم تفضح حزنها.. وأيديهن الملتصقة تهمس بالصداقة والحب الذي يجمعهما وسط إستفسارات فاطمه حول ما يجري.. فقد كان الشوق واللهفة يضيفان البهجة على الازهار المتناثرة والفرحة المتزايدة.. أجلست ريم صديقتها بشوق بالغ وهمست قائلة لها:

-لم أتوقع ابدا أن يأتي احد من أهل القرية لزيارتي..

أغمضت هدى عينيها وقالت بفخر:

-أنا افعل ما لم ولن يفعله احد..

هزت ريم رأسها وهي تذكر الاشياء كلها دفعة واحدة وتعرف فاطمه على هدى بسرعة.. كان ترحيبهما ببعضهما أكثر من جيد.. إلا أن فاطمه جلست الى جانب هدى تشكو لها ريم قائلة:

-على الرغم من أن ريم تعرفني على أنني صديقتها إلا أني لا أعرف شيئاعنها..

ضحكت الصديقتان فيما تدخلت هدى بمرح قائلة:

-ماذا تريد أن تعرفي عنها؟.. أنا أخبرك..

فركت فاطمه كلتي يديها في تعبير عن النيل من فريستها وهي تهم بمغادرة صديقتيها لتحضير القهوة لهما فيما تبادلت ريم وهدى السعادة والسؤال المتكرر عن الاخبار وأحوال القريتين.. صمتت ريم للحظة وهي تتذكر شيئا ما ثم قالت:

-أما زلت ترغبين بعشق رجل سيء يا صديقتي؟

ضحكت هدى بصوت عال والذكريات تعود سنين طويلة الى الوراء ثم ردت على صديقتها قائلة:

-هل إقتنعت الأن أن جميع الرجال سيئين؟

أزعجت كلمات هدى ريم وهي تهز رأسها غير موافقة على ما قالت.. وقد حولت هدى جو الحديث الى الجدية والغضب قائلة:
-أمرك غريب يا ريم.. كأنك مازلت تحبين عصام؟
في أخر كلمتين قالتهما هدى فهمت فاطمه كل شيء وقد دخلت متأثرة بإنزعاج معالم ريم فتحولت الى التأمل بالمستحيل ..تنهدت طويلا وقصيرا.. مسحت آلامها وهي ترجو تغيير الموضوع.. لكن وجه هدى الذي واجهها تماما منعها من التهرب طويلا ثم قالت:
-أنت تعلمين ما يجول في قلبي..

كانت فاطمه تحول رأسها بين الصديقتين الحزينتين وهي تشعر بقليل من الفرح لمعرفتها بأشياء كثيرة فهمتها في ثوان.. لكن الحب الذي ملأ وجه ريم تلك اللحظات أغناها عن الكلام لولا هدى التي أصرت على الحديث لتخرج ما في نفس صديقتها الممتلئة حزنا فقالت:
-ليس من حقك أن تربطيه بحبك يا ريم..

هزت ريم رأسها بهدوء وهي تقسو على الازهار التي بين يديها لتخفي الألم الذي يدق قلبها المحتمل ما لايطيق.. ومع أن فاطمه كانت ترفض كلمات هدى القاسية إلا أنها لم تقل شيئا بل أن عينيها لم تفارقا وجه ريم وهي تقول:
-أعرف هذا .. أنا لا أجبره على حبي لكنني أحبه ولا أمتك في هذا العالم سوى حبه الذي أعيش من أجله يا صديقتي..
-لكنه لم يعد ملكا لك..

حين صمتت هدى إنهمرت عيني ريم بالبكاء.. فدفنت وجهها في كفيها واستسلمت لتنهيدات قوية لم تحتملها.. فأبكت صديقتها اللتين اقتربتا منها محاولات تهدئتها.. مرت دقائق كثيرة وطويلة حتى إستعادت ريم قوتها لتقول بحزن:

-يكفيني منه أن ذات السماء تلفنا.. وأرض واحدة تجمعنا.. وأن الهواء الذي مر من عنده يمر من جانبي كل يوم..

-لكنك أضعت عمرك في هواه يا ريم..

-بل بدأت حياتي منذ أول يوم إلتقينا فيه..

ما تزال صورة عائلة أبي محمود تشغل ذهن عصام وهو يسند رأسه على الكرسي وقد أغمض عينيه ينتظر أي شيء إلا أن يقف أمامه حمزه بضحكته التي تخفي ورائها شقاوة ما ..تبادلا التحية بثانية ليجلس حمزه الى جانب شقيقه موجها نظره إليه لبرهة ونظرة الى أمه التي تحضر الشاي برهة أخرى.. الا أنه همس بصوت منخفض قائلا:

-هل تقبل المقايضة يا أخي؟

تأفف عصام مرات عديدة وهو ينظر الى حمزه ثم قال:

-كلا..

-لكني أرغب بأن أقول لك ما لا يعرفه أحد سواي..

إعتدل عصام في جلسته وما زالت ملامحه بعيدة عن الغضب.. إلا أنها جدية بعض الشيء.. ثم قال:

-لا أريد أن أعرفه.. بالاضافة الى أنني لا أفكر بإعطائك مفاتيح السيارة فلا تحاول..صوت ضحكة حمزه وصلت الى أمه التي رمقته بنفاذ صبر ثم قال:

-لا.. لا أريد المفاتيح ..أريد ما هو أهم بكثير..

كلماته أثارت إستغراب عصام وهو يشحن شقيقه بنظرات تبحث عن المعرفة فقال:

-وماذا تريد يا حمزه؟

-أريد أن أقول لك أمرا يهمك كثيرا.. مقابل أن تجيبني عن سؤال لا ينفك عن عقلي أبدا..

شعر عصام أن بإمكانه الاجابة عن أي سؤال من شقيقه الذي اكمل قائلا:

-أخبرني لماذا أبقيت ريم وقتا طويلا قبل أن تسمح لها برؤية جدتها مع أنك كنت ترغب بلقائهما؟

كتم عصام إنفعاله وهو يقف متجها الى أمه ليشرب معها الشاي محاولا إخفاء الكثير من الارتباك الذي سيطر عليه.. مشى خطوات عدة ثم قال:

-لا أريد أن أعرف شيئا.. وأنصحك الا تتدخل فيما لا يعنيك..

-بل أنصحك بالاجابة قبل أن..

وقف الشقيقان أمام بعضهما يحملان الحب والجدية إضافة الى بداية شعور بالغضب يسيطر على عصام وهو يقول:

-قلت لك مرارا ألا تتدخل في أموري الخاصة..

أسرع حمزه نحو أمه وجلس إلى جانبها ثم قال بصوت مرتفع:

-أمي.. هل تسمحين لي بأن أقول لك قصة جميلة؟

لم تنظر الام الى حمزه.. بل هزت رأسها لتتخلص منه بسرعة.. فيما كان الشقيقان لا يفارقان بعضهما بالنظرات الحادة من عصام.. والمزهوة بالنصر من حمزه وكأنهما يفهمان لبعضهما تماما ..

عاد حمزه الى الوراء وقال بفخر واضح:
-إنها قصة عاشقين ..فرقهما الدهر.. فكان الشاب قاسيا على حبيبته.. ومع ذلك يا أمي كان يغادر كل يوم خميس مساءا ويتجه الى مكان ما.. هل ترغبين بمعرفة هذا المكان يا امي؟

وفي لحظة لم ينتبه عصام الى نفسه الا وهو يمسك بثياب شقيقه غاضبا وقد صدمه كل كلمة قالها.. حاولت الام أن تحول بين ولديها.. إلا أن حمزه الذي إعتذر مطولا خفف من كم الغضب الهائل الذي سيطر على عصام.. ومع أن حمزه غادرهما متجها الى غرفته لكن عصام كان يقتله سؤال واحد رغب بحرارة أن يعرف جوابه.. لحق بشقيقه وقد أقسم لامه ألا يتشاجرا.. غير أن توقع حمزه لحضور عصام هدأ الجو للحديث.. فنظرة واحدة منهما كانت كافية لأن تضحك حمزه وتزرع الرغبة في الاجابة عما يدور في ذهن عصام الذي أغلق باب الغرفة وإتجه نحو شقيقه قائلا:
-من الذي أخبرك بما أفعل؟

وحين ساد الصمت للحظات نظر حمزه من نافذة غرفته يرقب بيت ريم وذاك الشارع الطويل الممتد في أنحاء القرية والذي يهمس بقرب فراق الشتاء له.. كان يخفي حزنا يشبه الى حد كبير فراق أوراق الخريف لأمها.. حزنه هذا أخفاه منذ رحيل ريم ..تلك الفتاة التي شاطرته سنوات من عمره وأصبحت جزءا من وطنه.. والان هي في مكان ما تعيش وحيدة.. حزينة.. ولا يجد سببا واحدا لأن تعيش هي من أجله.. كل هذا حمله حمزه في قلبه وعينيه وهو يأمل بأن تنتهي الاشياء الى الأفضل.. لذا وقف أمام شقيقه قائلا:
-أظن أن هناك أسئلة أكثر أهمية..

-ماذا تخفي عني يا حمزه؟
-أخفي عنك الكثير ولكن..
-لكني لن أقبل ابتزازك لتجيبني عن أي سؤال..
شعر عصام أن حمزه الذي كان يقايضه قبل وقت قصير قد تغير وكأنه يحمل هما يريد التخلص منه.. فهو لم يطلب من عصام أن يخبره شيئا بل جلس بتثاقل واضح وهو يشيح بوجهه عن شقيقه القلق.. كانت الثواني الفاصلة بينهما وبين ملامح حمزه ودقات قلبه قاسية.. أبطأت من أنفاس عصام وهو يقترب بحذر.. لم يبلغ عناءا في ان يقول شيئا لعصام.. فهو لم يعد يرغب بمعرفة شيء.. كانت إبتسامته الساخرة مهترئة.. أسند ظهره الى المقعد بخشونة واضحة وقال:
-أريد أن أخبرك عن لوحة جميلة رسمت بألوان جافة وقديمة.. حين تنظر إليها تشعر أن الوطن إحساس يعيدنا الى ذواتنا وحريتنا المفقودة منذ الازل.. فريم تلك الفتاة العاشقة الحالمة بقلب شاب ما زالت تعيش من أجله.. ياله من حلم صغير جدا وسط هذا العالم الزاخر.. ومع كل ذلك لم تحصل عليه.. لكنها لقنتني درسا في العطاء والاخلاص والحب.. فأنا لم أتفاجأ حين ترقبتك فوجدتك تذهب اليها مساءا لترقبها وتطمئن على أحوالها.. أو أنك أبقيتها وقتا طويلا قبل أن ترى جدتها لتطفيء لظى شوقك وتنعم بسماع صوتها.. بل ما أضحكني وأبكاني حين رقبتها فوجدتها كل صباح خميس تأتي الى القرية ترقبك من بعيد.. تطمئن عليك وتمضي.. ألا ترى أنها صدفة في غاية الجمال؟.. هي تأتيك صباحا كرقتها وأنت تذهب إليها مساءً كقسوتك.. وكلاكما لا يعرف عن الاخر شيئا..

-في وطن منسي.. حين يغفو جسر بين جبلين.. لا فرق بين شروق للشمس وغروب للقمر.. فالامور كلها سواء بوجود الاحتلال الذي يعطي للتراب رائحة لا تشبه الحلم المتبقي لأبنائه.. وهنا لا يسعنا ألا ان نتشبث بالحب.. الذي هو وحده يقهر لنا كل الاشياء المتعثرة في هذا الوطن.. وعصام هو الأجمل في وطن كهذا.. وليس ثمة ماهو أجمل من حبي له.. والذي يشبه فراشة تقترب مما تظنه ضوءا ينقذ حياتها وإذ هي بنار تحرقها فتبتعد وكلما إبتعدت كلما أيقنت أن هذه النار هي حياتها التي تبدأ بنهايتها فلاتكف عن عشقها أبدا.. كانت هذه أخر كلمات ريم التي علقت في ذهن هدى قبل أن تأوي الى فراشها البارد..

حاول حمزه مرارا أن يمتص غضب شقيقه المتطاير والذي يشبه شرارات نار مشتعلة لشتاء شديد البرودة.. لم يستطع أن يردد كلمة غير التوسل لعصام بالهدوء حتى يتمكنا من التحاور على الاقل.. كان عصام يزج رأسه بكفيه ثم يقرع الطاولة بقبضته متهما ريم بالجنون والغباء.. وهذا ما أثار ابتسام حمزه رادا بقوله:

-لكنك تفعل الامر ذاته..

نظر عصام بجدية شديدة الى شقيقه وصرخ بوجهه قائلا:

-أنا رجل يا حمزه.. أما هي فحمقاء.. تخاطر بحياتها في وطن محتل..

-وهل سيكسر الاحتلال قلوبنا أيضا.. ألا يكفيه ما يفعله؟

على الرغم مما كان يشعر به عصام تلك اللحظات.. إلا أن الفرح كان يسكن بمساحة قليلة جدا من قلبه بعد أن شعر بأن هذه المساحة ماتت منذ وقت طويل.. فكان أن نظر الى شقيقه بهدوء قائلا:

-أصمت يا حمزه ..أرجوك فإنك لا تفهم شيئا..

الرصاص الممتد في أنحاء القرية يثير الخوف المحتمل عند الجميع.. وكذا يثير تساؤلات كثيرة طرحتها خالة ريم وهي تبدي دهشتها من مغادرتها البيت لتلتحق بعملها.. إلا أنها لم تكن تجد غير إنفعالات عادية من ريم بضرورة خروجها.. حاولت سلمى التدخل في الموضوع لكن ريم طمأنتها طويلا ليستسلم الجميع لرغبتها بإستثناء هبه التي قالت بعنجهية واضحة:

-لا أرى مبررا لخروجك في ظروف كهذه يا ريم..

نظرت ريم بحنو الى شقيقتها القاسية وردت قائلة:

-أنا التي لا أرى مبررا لقلقكم علي..

-نحن لسنا قلقين عليك.. إنما مستغربين فقط..

-ولما الاستغراب..؟ فأنا لا أملك شيئا في الدنيا لاخشى عليه ..وما يشدني الى الموت أكثر بكثير مما يشدني الى الحياة..

لعل ريم شعرت أنها في لحظات قد أنهت الحديث لولا هبه التي وقفت أمامها وفي عينيها كثير من النظرات لم تستطع ريم فهمها وهي تهمس بسخرية منتصر على عدوه قائلة:

-وعصام؟

كانت هذه الكلمة الوحيدة التي أشعرت ريم بالضعف والخوف.. فشدت على معطفها بغيظ وحزن ونظرت الى سلمى التي وقفت مشفقة عليها فودعتها بإبتسامة أصغر من حجم الفرح ذاك اليوم..

ثم أنطلقت لتهمس له بصباح جميل يخلو من الخوف الذي يشعر به الجميع..

وكعادته العم أبو علي يرتب أشيائه الخاصة بسرعة كبيرة وهو يحدث هدى قائلا:

-وهل أخبرتي ريم عن إقتراحي في أن تسكن عندنا؟ وأنني هيأت لها الغرفة المناسبة لتستقر فيها؟

هزت هدى رأسها مرارا وسط إلحاح والدها.. فقد أجابت عن سؤاله بطرق مختلفة كثيرة إلا أنه لم يقتنع بعد ..

تنهدت بقليل من الغضب وقالت:

-أجل يا أبي.. أخبرتها لكنها قالت لي أنها لا تستطيع العودة الى القرية فشقيقها يرفض ذلك بشدة..

-لكنها ستعمل عندي في محل الازهار..

-أبي.. إنها تخشى أن تضيع عملها في تلك القرية.. ولا تحظى إلا بسخط زوجة أبيها ..

صمت أخيرا أبو علي وقد أغلقت الابواب في وجهه بعدما حاول أن يريح ريم مما تلاقيه من عناء كبير بمعيشتها عند زوجة أبيها وعملها طوال الليل والنهار..

-الساعة الثانية عشر ظهرا..

ردت فاطمه على سؤال ريم وهي ترتعش بجسدها وصوتها.. مما أثار ضحك ريم المتواصل وهي تقول:

-ما بك يا فاطمه؟ لماذا ترتعشين خوفا؟

تأففت فاطمه طويلا من لامبالاة ريم وصرخت قائلة:
-وهل تعتقدين أن جوا من الرصاص والرعب الذي نعيشه الان يمكن أن يفرحنا كثيرا؟..
-إذا كنت خائفة الى هذه الدرجة فعودي الى بيتك يا عزيزتي وأنا سأبقى هنا..
-يالأعصابك الباردة يا ريم..!
أنهت ريم صنع إكليل من الازهار ووضعته جانبا ثم نظرت بطرف خفي الى صديقتها وقد تغيرت نبرة صوتها قائلة:
-عشت يا صديقتي الكثير من الاحزان ووصلت الى الحقيقة التي همست لي جدتي بها ذات يوم حين أخبرتني أننا قد نكتشف في المستقبل حاجتنا الى الخوف من غير الاحتلال أكثر.. فقد خسرت كثيرا من خوفي.. أخي.. عصام.. وجدتي.. خسرت سنوات طويلة من عمري كان يمكن أن أحياها بحب أكبر وسعادة أكثر.. كان ينبغي علي أن أترك الامور كما هي.. وأعيش بما قدر لي من فرح.. حتى لا أقف الان بشجاعة.. بعد أن إنتهى كل شيء وأصبحت حياتي محورا من العمل في النهار هنا ثم العمل في الليل بالبرد والحر عند زوجة أبي.. فتبا لهذه الحياة التي لا مساحة فيها لأي حب..
ضحكت فاطمه محاولة لتخليص ريم من دوامة ألمها وحياتها المشمئزة فقالت بحنو بالغ:
-فلنغير الموضوع.. هل ستتأخرين غدا كعادتك كل يوم خميس؟..
ضمت شفتها السفلى بخجل وأعادت شعرها المتزاحم على كتفيها الى الوراء ثم قالت بفرح:
-أجل..
-ألن يأتي اليوم الذي سأعرف فيه أين تذهبين؟ ولماذا تتأخرين؟

رفعت ريم حاجبيها ألى الأعلى في اشارة إلى رفضها البوح عن هذا السر الجميل الذي كانت تظن أن لا أحد يعرفه..

وهناك حيث الشارع الذي يفصل بين القريتين والتي كانت ريم تقطعه في ساعة كاملة.. قد وصلت منتصفه.. حيث المكان الذي كلما وقفت عنده تذكرت لحظات جمعتها مع عصام فيها أخبرها أنه يحبها.. لم يختلف الحزن.. هو واحد لكنه يزداد كلما زاد البعد عن الحبيب.. وكأن كل مصائب الدنيا تصغر ببعدها إلا الحب الذي يكبر حزنه ببعدنا عنه.. الشيء الوحيد الذي كان مختلفا هذه المرة هو قطرات الشتاء المفقودة اليوم.. فهي كانت تزيد من إرهاق ريم وحزنها وتسبب في تأخرها أكثر.. هذا ما ظنته ريم لوهلة.. لكن ثمة أشياء مختلفة لا نحسب لها حسابا فتكون الاسوأ او الأفضل وكان هذا حين همس صوت هادئ لريم قائلا:

-صباح الخير يا أنسه..

نظرت ريم بسرعة الى الصوت.. فقد سبب لها الخوف.. الوقت مبكر والشارع فارغ من الناس.. عوضا عن أنهما في بلد محتل.. كل الاشياء ضدها..لم تستطع لدقيقة أن تعرف الوجه أو تتذكره.. أمر غريب ..حاولت أن تسرع الخطى وتتجاهل ذاك الشاب الوسيم الذي لا يبدو عليه أي أثر سيء.. فقد كرر لها التحية وكأنه يطمئنها وأكمل قائلا:

-لا تخافي.. فأنا هنا أبحث عن شخص ما في هذه القرية..

توقفت ريم للحظات وهي من بعيد جدا تلمح بيت عصام مما أشعرها بالطمأنينة والهدوء.. أبتلعت أنفاسها وقالت بخوف واضح:

-وبماذا أستطيع أن أخدمك؟

إبتسم الشاب وأقترب منها خطوات وكأن الزمن قد طوى نفسه بينهما.. فمد يده نحوها مسلما عليها وقال:

-إسمي عمر.. جئت أبحث عن أمي التي لم أرها منذ..

صمت الشاب وهو يرقب وجه ريم الذي تغير تماما فحمل الدهشة والغضب والقهر.. وهي تفلت يده منه لتصرخ قائلة:

-أأنت هو؟! ماكان يجب عليك أن تبكر كثيرا في المجيء.. هلا أنتظرت عشرين عاما أخرى لتأت وتسأل عن تلك المرأة المسكينة التي..

حاول عمر أن يهديء من غضب ريم المتراكم عليه وهو يشير لها بيده لتصمت.. فتبادلا الكلام بصوت مرتفع وهما يحاولان إصمات بعضهما.. كانت ترفض الاستماع إليه.. إلا أنه لم يكن يعلم مصير أمه بعد.. فريم لم تقل شيئا إلا العتاب والوصف بالأنانية والتكبر.. لذا آثرت الرحيل لتستكمل طريقها لولا أن وقف أمامها بقوة وهو يقول:

-أرجوك.. أتوسل إليك.. أخبريني أين أجد أمي.. وأنا سأقول لها أنني بحثت عنها طويلا.. فلم أستطع المجيء إليها الا بعد موت والدي.. صدقيني..

ضحكت ريم بسخرية واضحة وهي تنظر الى وجه عمر الذي يبدو عليه الصدق.. لكن مصير أم عمر ما زال يؤثر في قلبها ويترك جرحا يؤلمها دوما..

صمتت للحظات ثم قالت:

-لقد أنتظرتك أمك الرائعة لأكثر من خمس عشرة عاما.. تحلم برؤياك وتنتظر اللحظة التي يمكن أن تضحك فيها.. وقد فارقت الحياة وهي تنتظرك بفعل رصاص جاءها في حظر تجول حقير..

توقفت ريم عن الكلام وهي تلمح الدموع في عيني عمر.. للحظات أشفقت عليه ثم غادرته وهو يجلس على الارض يضع رأسه بين قدميه ويبكي حب أمه الذي فارقه قبل أن يلقاه..

وعلى الرغم من تأخرها في الوصول إلى قريتها.. إلا أنها ما زالت تفكر في ذاك الشاب الحزين.. الذي غادر مرمى عينيها ..فقد بقيت مسافة قصيرة لتصل الى قريتها.. والى عصام حيث تراه لدقائق معدودة.. تلبي شوقها ولهفتها إليه ثم تمضي.. ولكن.. أيضا هذه المرة كانت محتلفة تماما.. قد أوقفها صوت أخر إلا أنها تعرف صاحب هذا الصوت.. تحفظه.. وتعشقه.. فما أن سمعته حتى وقفت متسمرة في مكانها.. لم يلق تحية الصباح كعمر.. ولم يبتسم.. لكنها شعرت بالارتباك المتوشح برائحة الامن والحب.. كانت نظراته حادة.. حازمة.. وتخفي العشق القديم المتجدد.. ففي أول لقاء منفرد بينهما كانت هي قوية ضعيفة.. سعيدة وحزينة ..لم تستطع رفع عينيها لتراه أو تلتقي بوجهه...إنما كانت تبتعد عنه.. لتحسن مواجهته كالجبناء.. فهي أنتظرت حديثه طويلا.. وهي تعلم تماما أن هو من عليه أن يبدأ الحديث.. وكلما تأخر قليلا خطت خطوة الى الامام.. تنحنح وقال:

-ماذا تفعلين في قريتنا؟

شعرت ريم أن الامور أختلطت عليها دفعة واحدة ..وأنها لم تكن تعلم أبدا ان هذا مآل يومها.. تمسكت بالصمت.. لعلها تستطيع أن تصل الى إجابة أو سبب ترد به على عصام الذي كرر سؤاله وقد علا صوته قليلا.. حاولت أن تقنع نفسها بأن وجوده هنا في هذه اللحظة وهذا اليوم هو محض صدفة.. ولولا ذلك لما استطاعت أن تقف ثوان أخرى على قدميها.. فقد قاست المسافة الفاصلة بينها وبين صوته المتدفق من وراء ظهرها فعدتها بعشر خطوات فقط.. لذا كان يستحسن عليها أن تجيب بسرعة أو تنسحب

وهذا ما كان يؤرقها.. وفي النهاية وصلت الى جواب لم تعرف من أين نزل عليها فقالت:

-وهذه قريتي أيضا..

-ألا تجدين أن الوقت مبكر جدا لزيارة قريتك.. فالناس نيام.. حتى جدتك أظن أن موعدك معها الاسبوع القادم وبعد العصر..

بدأت حدقتي ريم تذهب يمينا وشمالا.. فهي محاصرة بعصام ونظراته التي فهمت منها أنه عرف كل شيء وشعر بخوفها وارتباكها.. فلم تعد تعلم من أين ستاتي بالقوة لتقابله بها.. لم يكن أمامها الا أن تتجه نحوه ليتواجها متقابلين.. تتراقص من حولهما أطياف عشق يتجدد كل لحظة.. لكن الصمت كان قاسيا في وجه ورائعا في أخر.. أشبه بضباب شتاء يحمل الخير والقوة.. وتلك اللحظات برغم سعادتها إلا أن المشاعر الحزينة كانت تملأها وحين كانت ريم تذكر أن عصام لن يكون حبيبا لها يوما كانت تبدي قوتها وإنزعاجها فتخفي حبها ومن هنا قالت:

-أظن أن هذه الامور خاصة بي وعلى حد علمي أن أموري لم تعد تعنيك شيئا..كانت هذه أول مرة يبتسم فيها عصام منذ وقت طويل وهو يقترب من ريم خطوة ليرد عليها قائلا:

-أنصحك ألا تخاطري بحياتك من أجل الأخرين ..فنحن في وطن محتل..

ضحكت ريم بصوت مرتفع لتتراقص معها تلك الشعرات الصغيرة التي تزين جبينها.. نظرت بتمعن الى عصام وقالت بقوة:

-حين نقسو على بعضنا نكون أكثر قسوة من الاحتلال نفسه..

كل شيء إنتهى في لحظات.. وتكشفت الاشياء بأسرع مما توقعت وهي تشعر بالخجل أمام ثقة عصام ووصوله الى الحقيقة.. لكن قرارها الشجاع بأن تتركه وتترك القرية لتعود الى قريتها تركه صامتا محدقا بها لا يعرف كيف سيقضي يومه بعد أن رآها وقد زينته بجمالها وحبها..

هكذا تنتهي الحقائق دوما.. بذكريات دافئة تحاصر حاضرنا وتزعج مستقبلنا.. تشدنا الى الوراء وتصطاد الابتسامة الصغيرة التي كنا نود أن نزرعها على شفاهنا.. ولا جدوى.. فهي تخطفنا منها وتلقي بالابتسامة لتصبح نارا تكوي قلوبنا العاشقة بالحب المستحيل.. فقد تركت له قلبي مع آه صغيرة تكبر كلما أبتعدت عنه.. هل تدركي بماذا تمتلئ صدورنا حين يغيب الأحباب؟ ليتني أعلم.. لصرخت وصرخت في العالم أن حجم هذا الحزن لا نحتمله ولا نحتمل أن نغلق أعيننا ونفتحها كل صباح دون أن نزرع فيها الحياة برؤية من نحب..

كانت تدرك سلمى وهي تستمع لكلام ريم أن شقيقتها تعشق بقوة وأن هذا الشاب قد سلب فؤادها وعذبها حتى تمنت لو أنها لم تكن..

وحين يأتي الفرح في خضم الألم.. يهدي الزمن فرصة للأحباب بالأبتسام ..ضحكات الفتيات زينت بيت ابا علي وهو يرقبهن بفخر بعد أن دعا ريم لتناول طعام الغداء إلى جانب شقيقاتها وكذلك فاطمه..

هذا التناقض الجميل أضفى رونقا مميزا على الجلسة التي غلب عليها الضحك والمرح والرغبة في فعل ما يقهر الشعور بالخسارة.. لكن مشاعر ريم كانت مختلفة وهي تقارب سكنى عصام حتى وإن لم تحظ برؤيته.. فهو يسكن في عيني ماجد وأبو علي اللذين رحبا بضيوفهما بشغف كبير..

حاولت ريم أن تسترق الابتسامة كثيرا هذا اليوم.. فقد تبادلت هي وهدى التمايل والصراخ والضحك ليحظيا بعودة الى الطفولة الخلابة.. وتلك اللحظات الجدية كانت حين يحاول ابو علي التأثير على ريم بالعودة للسكنى عندهم.. مقسما لريم أكثر من مرة أنه أقتنع تماما بأنها كبرت ..وأصبحت فتاة يطمح لها الجميع.. هذا المنظر البديع لتلك الفتيات كان سببا في دخول حمزه البيت بفرح وترقب لما سيحصل وهو يرد على أمه التي أتهمته بأنه لا يكن لها ولاءا كعصام الذي لا يبارحها أبدا.. فقال:

-أمي هل ترغبين ببقائي الى جانبك فيما يزدان بيت عمي أبو علي بالكثير من الفتيات الجميلات؟

لم تلفت كلمات حمزه إهتمام عصام وهو يرمقه بنظرات سريعة ليقترب منه حمزه قائلا:

-أعرف تماما أنك لا ترى جميلة في الدنيا غير.....

تحركت أصابع عصام وهو يداعب كرسيه بقليل من الهدوء موجها كلامه لحمزه قائلا:

-أتمنى أن تكف عن ثرثرتك ياأخي.. فلا وقت لدي للحديث معك..

إبتسم حمزه وهو يعلم أثر كلماته لشقيقه قائلا:

-وهل سيكون لديك وقت للحديث حين تعلم أن أحدى الجميلات في بيت عمي أبو علي هي ريم؟..

حاول عصام ان يخفي إنفعالاته وهو يرقب حمزه وقد حاصره بعينيه اللامعتين.. فيما كان الشعور بالأمن والسعادة يسيطران عليه وكأنه أصبح في لحظات يسكن بيت أبا علي الذي يحبه كثيرا..

كل وسائل السعادة استخدمتها ريم وصديقاتها فيما كانت تقترب هدى منها قليلا لتقول:

-ريم.. هل شقيقتك هبه حمقاء؟

لم تستطع ريم أو هدى كتمان ضحكتهما فيما قالت ردت ريم بفرح قائلة:

-لا.. إنما هي مزعجة بعض الشئ.. ولكن لماذا تسألين؟

-لقد ذكرتني بأنفسنا حين كنا صغارا.. نود فعل كل شئ والتمتع بكل ألوان الفرح.. إلا أن خوفنا من إعتقاد الأخرين بأننا ضعافا كان يمنعنا من فعل ذلك..

أكدت ريم كلام صديقتها بحركة عفوية من رأسها وفاجأتها بأنها ما زالت هي كذلك..

ورغم أن لاأحد من القرية رأى ريم إلا ان الجميع سعد بوجودها حتى سالم الذي حاول أن يحدثها أكثر من مرة ليقنعها بأنه قد وفى بوعده بإخراج عصام من السجن.. وكأنه لا يعلم أبدا أن المصيبة كانت فيما بعد ذلك..

ترانيم الصباح كانت تتراكض لترسم يوما جديدا يحمل كثيرا من الصفاء الذي تتركه الأمطار على شجر القرية ..إلا انه في قرية يحاصرها الاحتلال.. تتغير حتى الأسماء حين يقترب منها شابا كسالم حين دق فجر ماجد بقليل من الغضب وكثير من الحقد في تحيته الصباحية الذي ردها ماجد دون أن ينظر إليه.. كان هذا الامر معتادا عليه من قبل سالم وقد أتهمه الجميع بالوشاية

بعصام ليدخل السجن سنين كانت قد تكون طويلة.. أقترب من ماجد أكثر وتنهد بحنق ثم قال بحزم:

-أخبر صديقك ان يتوقف عما يفعله وإلا.....

نظر ماجد بسرعة الى سالم قبل ان يتم حديثه وبنفس لهجته قال:

-وإلا ماذا يا سالم؟ إذا كان عصام يضايقك كثيرا فقل له أنت ذلك.. لا أظن أنك ستفعل به أكثر مما فعلت.. إلا إذا كنت تنوي سجنه الى الأبد..

ضحك سالم بسخرية شديدة وخفف من حدته في الحديث قائلا:

-عجبت منه هذا الشاب.. قد ملك كل أسباب السعادة ثم تركها ليخوض في مستنقع المقاومة الذي لا ينتهي بخير.. فإن له حبيبة لا يحسب الرجل حسابا حين يحبها.. وقد أتم دراسته وها هو يعمل ثم..

-أعرف ما ستصبو إليه بقولك.. ولأن عصام يملك كل شئ فهو يرغب بأن يحبها بطريقته الخاصة التي لا يمكن لرجل مثلك أن يستوعبها أبدا..

-ماذا تعني يا ماجد؟

-أعني ما يدور في خلدك الأن..

حضور عصام فجأة أنهى حديث الشابين اللدودين بسرعة ..

-قد عرفت شيئا ما..

قال حمزه كلماته التي لم تثر إهتمام عصام وهو يضع فنجان القهوة على الطاولة التي تسكن قرب النافذة المطلة على شوارع القرية.. كرر حمزه كلماته بشيء من النصر فيما نظر إليه عصام قائلا:

-كف عن شقاوتك يا حمزه..

جلس حمزه إلى جانب أخيه وتنفس بعمق وكأنه في رحلة طويلة ثم قال:

-فكرت طويلا وفكرت ثم توصلت إلى معلومة مفادها أنك اليوم الساعة

الثانية عشر ظهرا كنت ملثما وتقاوم الاحتلال في مواجهة عسكرية شديدة..
ضحك عصام طويلا وهو ينظر الى شقيقه ثم قال مستخفا به:
-وهل عينك أحد مراقبا علي؟
تحركت شفتي حمزه وكأنه أصيب بخيبة أمل في أنه لم يأت بجديد ثم رد قائلا:
-أبدا.. إنما أردت أن أقول لك أنك إن فكرت في دخول السجن ثانية فلا تنس أن تترك لي مفاتيح سيارتك لأحقق أمنيتي المستحيلة..
صوت ضحك الشقيقين تأخر في سماعهما لطرقات الباب السريعة والهادئة..
نظر الاثنان معا الى الام وهي تدخل متوترة لتستأذن قائلة:
-عصام.. إن الجدة مريضة جدا..
وقف حمزه وعصام بسرعة وإتجها إلى غرفة الجدة التي كانت منهكة ومتعبة..
بالاضافة الى الحرارة التي لم تفارقها منذ نصف ساعة كما أخبرتهما الام..
كانت الوجوه الثلاثة التي تنظر الى الجدة حزينة.. يشوبها التشاؤم والقلق..
مشى عصام خطوات في البيت ليفكر فيما سيفعل.. فلا أطباء في هذه الساعة المتأخرة ولا حيلة في تخفيف هذيان الجدة التي لم تنطق سوى إسم ريم على شفاهها.. مسحت الام دموعها بحرقة ونظرت الى ولديها بتوسل وهي تقول:
-أرجوك يا عصام أن تأتي بريم..

أعادت كلمات الام عصام خطوة إلى صوابه والدهشة رسمت على وجهه بسرعة فقال:
-لا يا أمي.. مستحيل.. الساعة تعدت الثانية عشر ليلا وهذا غير ممكن أبدا..

حاولت الأم أن تنقل نظراتها إلى ولدها حمزه لعله يستجيب لطلبها.. لكن عصام قطع عليها الكلام وأكمل قائلا:

-أمي أرجوك تفهمي الامر ..

أشاحت الام وجهها عن ولديها في دلالة على غضب تملكها مما أثار توسلاتهما إليها بالوعد الجازم لأن يحضراها منذ شروق الشمس وأن يعتنيا بالجدة فلا يمسها السوء أبدا..

جلست الأم إلى جانب الجدة بهدوء فيما كانت تبدل لها قطعة القماش المبللة بالماء البارد مرارا.. كانت ساعات عصيبة تلك التي تفصلهما عن الفجر.. هذا ما شعر به عصام وحمزه وكذلك ريم التي لم تنم الا ساعة واحدة حين أقلقت تلك الفرحة بحجم نسمة الصيف روحها ومسائها.. ترقب شقيقتيها والراحة تملأ وجهيهما وهن يستعددن للخلود الى النوم.. لكنها أثارت فضول سلمى وسؤالها قائلة:

-ما الذي يدفعك الى هذه الابتسامة؟

رفعت ريم رأسها عن الوسادة وجلست على فراشها وفي عينيها نهم للحديث بشوق فقالت:

-تذكرت حين كنت صغيرة.. آوي الى فراشي وأحتضن وسادتي.. لو كنت أعلم حينها أن العمر ينبغي له أن يتوقف هناك.. لما غادرت تلك الأيام وتيك الأمنيات..

شاركت سلمى شقيقتها الجلوس ثم قالت:

-وماذا كانت أمنيتك حينها؟

تنهدت ريم بفرح وسخرية لترد على شقيقتها قائلة:

-منذ صغري وأنا أمتلك أمنية غريبة لا أحسن البوح بها حتى لا يسخر أحد مني..

توقفت هبه عن التقلب في فراشها واتكأت على وسادتها لتشارك شقيقتها الحديث وهي تنظر الى ريم بلهفة فيما كانت تبتسم موجهة حديثها لسلمى التي أصرت على معرفة أمنيتها قائلة:

-أخبريني أنت عن أمنيتك أولا يا سلمى..

تاهت سلمى في خاطرها قليلا ثم قالت بقليل من الخجل وبصوت منخفض:

-كنت أتمنى دوما أن أكبر حتى اصبح قادرة على الوصول الى نافذة البيت وأنتظر الشتاء لأتمكن من كتابة أسمي على الهبو الذي يحتضن النافذة بقوة.. أما الآن وقد حققت تلك الأمنية.. فأنا أبحث عن أخرى لأعيش بشوق أكبر..

أضافت كلمات سلمى جوا ممتعا الى الجلسة بينما توجهت الانظار الى ريم وقد استعدت للبوح بأمنيتها قائلة:

-أما انا فأمنيتي أن أعبث بعقارب الساعة في الإتجاه الذي أرغبه.. لعلي أريد تشكيل الزمن بطريقتي.. فأقرب ما أحبه وأبعد ما لا أرغب به.. أو أنني لا أعرف السبب ربما عليكن معرفته بأنفسكن..

تبادلت الشقيقات الضحك فيما أقتربت هبه قائلة:

-أما أنا فلدي أمنية وحيدة أتوق للموت في سبيل تحقيقها.. أتدرون ما هي؟

توقفت سلمى عن التفكير لمعرفتها بأن شقيقتها لم يكن لديها أية أمنية من قبل فما الذي جد الآن؟.. لكنها سألت هبه بشوق لتجيب بخبث قائلة:

-أن أرى عصام...

حاولت ريم أن تحلق بعيدا.. لكن جناحها مكسور.. يبحث عن ظله فلا يجد إلا حبا منسيا ووطنا ضائعا.. وأفقا غريبا ملون بألوان المجد عند المستحيل.. أبتسمت.. لكن ابتسامتها أرتدت إليها لتصنع قيدا يكبل حريتها المجيدة.. فصمتت كالبحر بطيئة أمواجه.. حزينة أيامه.. ينسى حتى لحظات أيامه ..لتكتشف أن عشقها وصدقها كالوطن خالدان عبر الزمن..

شروق جديد للشمس.. شعر الجميع بصعوبته وطوله الا عصام الذي كان يسبقه قلبه لرؤية ريم.. ومع أن حمزه نظر الى وجهه مرارا وهو يحاول أن يكشف المخفي من المشاعر دون فائدة.. فعصام ذو ملامح هادئة.. خاصة أنهما قضيا نصف المسافة الى قرية ريم دون أية كلمة حتى فاض الكيل بحمزه فقال وقد شعر عصام بنفاذ صبره:

بماذا تفكر يا عصام؟

لم يقل عصام شيئا.. بل كشف بإبتسامة بسيطة عن قراءته لافكار شقيقه الشريرة.. أعاد حمزه الكرة ثانية فقال:

-أتفكر بما حدث ليلة أمس؟.. أم فيما سيحصل؟

هز عصام رأسه بلا مبالاة وقال:

-لا أفكر في شيء..

تأفف حمزه طويلا ثم قال:

-ألا تعتقد أن ريم تستحق التفكير؟

أثارت كلمات حمزه ضحك عصام المستهتر ليترك الفرصة لشقيقه ثانية كي يقول:

-ولكن ريم يا عصام...

تحولت نبرة عصام الى القوة وهو ينظر الى شقيقه بجدية واضحة ليقول دون ادراك:

-ما رأيك أن تعشقها بدلا عني؟

صدمت كلمات عصام حمزه الذي أعلن فيها ببساطة بقاءه على عشق ريم.. فقد وصل الى ما يريد واطمأن على هذا الحب الجميل.. إبتسم بهدوء بعد أن سكنت الصدمة ملامح وجهه وقال:

-إذن ما زلت تحبها؟

أوقف عصام السيارة بعد أن وصلا البيت وأوقف معها حديثهما الذي دفع عصام لأن يقول ما لا يريد..

كصباح كل يوم جمعة كانت ريم تسكن المطبخ.. تجهز الافطاروتحضر لهذا اليوم الشاق.. ولا تفكر إلا فيما حصل ليلة أمس.. وكعادتها.. لم تهتم أبدا بمن يحضر او لا يحضر.. كل الأمور عندها سواء.. فقد مرت ربع ساعة على وصول ضيوف إلى بيتها وهي تسمع تمتمات ترتفع شيئا فشيئا.. لم تحرص على سماع ذاك الحديث ..فهي كانت على يقين تام بتفاهة أي شخص يتحدث مع زوجة أبيها ويطيل معها الكلام.. إلا أن دخول سلمى وهبه عليها أخافها.. فقد إقتربتا بسرعة.. وسلمى تقول ضاحكة:

-ريم.. هل تصدقي أن في بيتنا شابين وسيمين للغاية؟

هزت ريم رأسها دون أن تنظر إلى إحداهن.. فبدأت سلمى بوصفهما في نفس اللحظة التي قالت فيها هبه بسخرية:

-المشكلة في الموضوع أنك محور هذا الحديث الهام..

في تلك اللحظة التي قالت فيها هبه هذه الكلمات مع وصف سلمى وصراخ زوجة الاب.. توقفت ريم عن العمل وقد أخذتها الدهشة.. شعرت أن الدنيا تلف من حولها وهي لا تقوى على الحراك.. قلبها يدق بسرعة وقد عجزت عن الوصول الى باب المطبخ لتتأكد مما يدور في ذهنها..

لكن تلك اليد التي أمتدت اليها بحنو وأجلستها على الكرسي كانت يد سلمى وقد انتابتها مشاعر القلق والهلع فقالت:

-ريم.. ما بك؟ هل أنت بخير؟

أغمضت ريم عينيها ثم قالت بصوت مختنق:

-إنه عصام..

نظرت سلمى وهبه الى بعضهما وتوجها الى الباب بسرعة ليتفاجآ بالام تقف لتنادي ريم بصوت مرتفع.. فزعت ريم وتوجهت إليها ليلتقي الجميع في لحظة واحدة.. كان موقفا مؤلما.. شعرت فيه ريم بالهوان وقلة الحيلة.. وعصام بالألم والإشمئزاز فيما تسيطر زوجة الأب على زمام الامور.. شعر حمزه في لحظات الصمت تلك أن عصام لن يتأخر طويلا فيفعل ما يمكن أن يدمر كل شيء في ثوان ..لذا آثر ان يتدخل بسرعة ويقول:

-ريم.. لا تقلقي من حضورنا إنما جدتك ترغب برؤيتك..

نظرت ريم الى الارض مرارا لتعلن عدم قدرتها على فعل شيء فيما قالت زوجة الاب:

-للأسف كنت أود أن أخدمكما.. لكن ريم لا تستطيع الاتيان معكما.. فعمل اليوم كله على عاتقها ..

أقتربت سلمى خطوة لتدخل دائرة الحديث القاسية.. فقالت بصوت هاديء ورقيق:

-أمي.. أنا على استعداد لأن أعمل اليوم بدل ريم ولكن أرجوك دعيها تذهب..

ضحكت الام بصوت مرتفع ومستهتر لتقول راغبة في إنهاء الحديث:

-إن خرجت ريم من هنا.. فليس لها أن تعود أبدا.. وهي حرة في الإختيار..

يالها من لحظات مقرفة.. توصلت فيها ريم الى أن الحياة حين تقسو تخلع كل أقنعتها وتلقيها أمام خسارتنا الفادحة للحب.. لكن في النهاية نستسلم للظلم والحزن والألم والقسوة المتوارثة بين الجميع بنسبها المختلفة..

الى هنا لم يتدخل عصام بعد.. على الرغم من نظرات الاعجاب التي رمقتها سلمى وهبه له وقد شعربها.. إقترب من زوجة الاب كثيرا وقال لها بتحد واضح:

-ولكني سآخذ ريم رغما عنك..

حلق الاستغراب والدهشة بين الجميع.. وزرعت بينهم لحظات بالترقب مما يمكن أن يحصل ..والخاسر الوحيد هي ريم.. التي تعرف تماما ماذا يمكن أن يحصل.. فزوجة أبيها ستطردها من البيت.. وعصام كذلك.. بعد أن ترى جدتها.. ولن تجد لها مكانا تأوي إليه.. فشقيقها سافر مجددا بعد أن إستولى على البيت وباعه الى من لا تعرف.. تنهدت بحرقة واستسلمت للهدوء المؤلم الذي نأوي اليه حين نفقد كل الاشياء الجميلة لحظة واحدة.. وكذلك للمجهول الذي يمكن أن يلقينا الى النهاية القذرة بسرعة.. إستفاقت ريم على صوت زوجة أبيها وهي تنظر اليها قائلة:

-ها هي أمامك.. تستطيع أن تسألها..
هزت ريم رأسها والدموع ما زالت تتملكها ثم قالت:
-لا أستطيع الذهاب معكما..
أثار ضعف ريم غضب عصام وقد تغيرت ملامحه الى ما يكرهه حمزه والذي يتقن قراءة أفكار شقيقه.. فما أن تحركت ريم لتتركهم متجهة الى المطبخ حتى أقترب منها عصام وقبض على يدها بقوة وهو يقول:
-لم ينته الحديث بعد يا ريم..

هذا الموقف الجميل كما شعرت به سلمى وهبه.. أحزن ريم كثيرا.. فهي لم تعتد على قسوة عصام.. إضافة الى أنها كانت جل ما تخشاه أن يظن ولو للحظة واحدة أنها يمكن أن تقدم أي شيء في الدنيا عليه ولو نفسها.. فقد آثرت الصمت ولم تقاوم يد عصام أو نظراته التي تنبذ إستسلامها.. كان الجميع ينتظر من ريم أن تقول شيئا.. إلا أن عصام أخذ بيدها متوجها إلى زوجة أبيها قائلا بقوة وغضب وقد أخرج من جيبه بعضا من المال:
-إذا كان هذا المال يسمح لريم بالإتيان معنا فهو لك..

كل الانظار إتجهت الى تلك الاوراق التي غيرت الامور تماما وقد أمسكت بها زوجة الاب وقبلتها مرارا موافقة على خروج ريم.. فيما كان حمزه وسلمى يشعران بالاذى والإنزعاج من كل ما حصل بالرغم من موقف عصام المنتصر بالحق.. إلا هبه التي إختالت بتحقيق أمنيتها الوحيدة بسرعة جميلة..

عشر دقائق مرت وريم تحاول السيطرة على نفسها.. فالدموع خنقتها في كل ثانية تتجنب فيها نظرات عصام من تلك المرآة التي مقتتها طويلا.. على

الرغم من أنها تجلس خلف حمزه تماما.. حاولت أن تفعل أو تقول شيئا.. لكنها لم تستطع خاصة أن حمزه قبض على الصمت وقتا طويلا وهو يشعر أن لا مكان له بين هذين الحبيبين.. لكنه تفاجأ حين مسحت ريم دموعها وقالت بصوت قوي:

-سأعيد لك المبلغ الذي دفعته لزوجة أبي حين يتوفر معي وأعدك أن يكون هذا قريبا..

ابتسم عصام وهو يحاصر ريم بنظرات إنتصار ورد ببرود قائلا:

- لم أعتد على أخذ المال من النساء..

-لكنه حقك..

لم تفكر ريم طويلا في الرد ..وكذلك هو حين قال:

-ومن حقي أيضا ألا توصي جدتك بأن لا تسألني عنك.. فأنت في النهاية أبنة قريتي وعلي أن أعتني بأمورك..

تفاجأت ريم بحديث عصام المستفز لترد بغضب قائلة:

-هذه أمور خاصة بي ولا أحب أن يتدخل فيها أي شخص..

ومع كل الاستفزاز الذي أخرج ريم عن طورها ..لكن هذا لم يمنع عصام من إتمام حديثه بسخرية قائلا:

-كل الأمور خاصة بك.. وليس من حق أحد التدخل فيها.. أستغنائك عن راتبك رغم حاجتك إليه لتكفري به خطأك.. أن تقنعي الجدة بأن لا تتحدث بشأنك أمامي.. وكذلك مجيئك الى القرية دون أن تسألي عن الجدة.. والكثير من الأخطاء الحمقاء..

صدمة ريم كبيرة أزاء معرفة عصام بتفاصيل حياتها الخاصة.. كانت تبحث عما يمكن أن يحمي أمواجها المتلاطمة من هذا الشاب الذي تمم بقوة غضبها ليقول كل شئ في لحظات وهي لا تقوى على التحكم بهذا الكم الهائل من الانفعال الذي سيطر على صوتها قائلا:

-حياتي كلها حمقاء.. وأكذوبة بدأت منذ تعلقت بك.. وأنتهت بإكتشافي أنها قصيرة جدا لأملأها بالخوف وأخسر كل شئ ..

بلا شك أنه موقف مؤثر.. فحمزه تمنى لو أنه لا يحضر نقاشا مؤلما كهذا.. فيما شعرت ريم أن هذه اللحظات قطعت خيط الامل الوحيد الذي كان يجمعها مع عصام وقد كانت متمسكة به لعله يحنو عليها فيعيد حبا قديما لا حياة فيه الان..

كانت المسافة قصيرة جدا بين القريتين.. لكنها طويلة على قلب ريم المتألم وعنفوان عصام المتجدد وكذلك حمزه الذي يجمع بين الاثنين.. يحبهما ويشفق عليهما وقد وصل الى أمر أكيد بغربتهما عن بعضهما هذه اللحظات.. لكنه أبدا لم يعرف أن كلا من ريم وعصام يفكران بقلب وعشق واحد.. فما لا يعرفه الاخرون عن العشق يحفظه العاشقون عن ظهر قلب.. وهذا السر الذي يكمن في حبهما للوعة العشق وحزن الاخرين عليهما.. فهما في قفص مذهب ينتشيان به ويزهوان بقضبانه.. ومع ذلك شيء واحد فقط كان عصام يخفيه حتى على ريم التي لم تستطع معرفته رغم حبها الجنوني له..

وحين نصل الى الآهات.. ماذا نفعل؟ حين يجتمع الماضي ليطرد الحاضر ويتمسك بوجوده .. هذا ما شعرت به ريم وهي تهوي على صدر جدتها.. تبكي وتقبلها وكأنها فقدت كل العالم الا ذاك الحضن الصغير الذي هو برغم ضعفه وعجزه إلا أنه ممتلئ بالحب لها.. حاولت ريم تلك اللحظات أن تكره عصام كثيرا.. فهو لم يخبرها حقيقة مرض جدتها.. لكن الرائحة التي جمعتها مع جدتها أنستها كل شيء الا الماضي الجميل ورائحة القرية عند الصباح.. ضحكات الفجر وأصوات الناس في الصيف عند المساء.. كل شيء ضاع وأرتحل ولم يتبق الا ريم تسكن بين يدي جدتها.. حزينة باكية وهي تقول:

-جدتي.. أتوسل اليك ألا ترحلي.. فلم يعد لي أحدا يحبني سواك.. أترين هذا العالم كله يا جدتي؟ هو فارغ من كل شيء إلا أنت.. فعلى حضنك ولدت.. وبحبك تربيت.. وعند وجهك الجميل عشقت.. حتى عصاك ..هي التي تشعرني بأن الحياة ما زالت نابضة بالبقاء فلا ترحلي.. إن رحلت فسأترك كل شيء ورائي لارحل معك.. مهلا جدتي.. لعل العمر ما زال فيه بقية لإبتسامة أو إبتسامتين نعيش في ظلها الى الابد..

كانت الجدة تستمع لكلام ريم بدموع سخية وعجز واضح.. فهي قادرة فقط على حبها المتدفق كالعادة.. مما دعا عصام الى مغادرة الغرفة وكذلك الأم لتنكب ريم على السرير تبكي بحرقة.. كان حمزه مكابرا على أحزانه حين أقترب من ريم وهمس لها قائلا:

-ريم أرجوك.. ستقتلين نفسك هكذا..

ريم لم تنصاع لحديث حمزه.. بل رفعت رأسها وقالت بوهن شديد:

-شقيقك وشقيقي أذلاني يا حمزه.. فقد حرماني من كل شيء أحببته في حياتي..

زادت كلمات ريم حزن حمزه وهو يرى بوضوح خسارتها لكل شيء.. وأن ريم لن تعود أبدا ولن يراها أحد بعد رحيل جدتها..

وكذا هي تكون.. وجوهنا عند رحيل الشتاء.. حين يتركها بلا عنوان وكأننا لم نرها يوما.. شهر كامل مردون أن يسمع أحد أي شيء عن ريم أو يراها.. فبعد أن أستقرت حالة جدتها رحلت وقد أقسمت على ألا تعود.. وهذا قد أحزن كل القرية التي تحبها.. الا أن حزن عصام وغضبه كان منفردا فلم يستطع أحد أن يغير من مشاعره المتوترة .. لم يكن هناك من حجة يلجأ إليها أحد للسؤال عنها والذهاب إليها.. فكلهم وصلوا إلى نتيجة أن ريم لا ترغب بأن تنظر الى ماضيها بكل تفاصيله من أشخاص أو ذكريات لذا كانت هدى الوحيدة التي يمكن ان تذهب إليها.. لكنها آثرت أن تتركها حتى تهدأ قليلا.. وقد كان بالفعل أهل القرية يقرأون أفكار ريم جيدا.. هي غاضبة أكثر من أي وقت.. فالحزن كان أيسر عليها لان فيه المتعة عند العاشقين.. أما الغضب فلا باب للخروج من قهره.. ومع مرور هذا الشهر إلا أن فاطمه وسلمى حتى هبه لم تكف إحداهن عن طرح الاسئلة المتكررة حول ما حصل ذلك اليوم.. وما فعله عصام الذي يستحق البقاء على حبه حتى وإن رفض ذلك كما قالت هبه مرارا لتحزن قلب ريم المتألم.. فهي لم تعد تعرف سبب غضبها وحجمه ووقته ومآله.. فقد اختلطت المشاعر حتى ظنت أن خسارتها لعصام وحبه قد بدأ ذلك اليوم الذي لم تره بعده..

-صباح الخير..

كلمتان رفعتا رأس ريم وفاطمه ليسمعا قائلها.. نظرت إليه ريم لثوان وأبتسمت بعد أن عرفته.. نظر إليها وبادلها إبتسامة أكثر عمقا دون أن ينقل

نظراته إلى فاطمه.. التي أمتعضت من أن أحدا لا يهتم بها عند دخوله الى محل أزهارها الجميل.. فقد نقلت نظراتها عدة مرات بينه وبين ريم ولم تكن تعرف من هو.. أقترب بخطى متزنة ودخل ليقترب من ريم قائلا:

-هلا صنعتي إكليلا من الورد لأغطي به قبر أمي من فضلك؟

نظرت ريم بقليل من السعادة لهذا الشاب الذي يحاول الوصول بها الى ما لا تعرف.. وما لا تعرفه أيضا كيف وصل إليها؟ فقالت بهدوء:

-لم تكن تحتاج أمك يوما الى الازهار..

هز عمر رأسه بأسى وقال متمما حديثه:

-هذا صحيح.. فمن يعرفك لا يحتاج أبدا إلى الازهار..

كانت كلمات عمر الغزلية كمرساة ألقت فيها ريم رحالها لترتاح قليلا من كثرة أحزانها .. فهي منذ وقت طويل لم تسمع كلمة تشبه الى حد بعيد الحب الذي لا يشبه الا نفسه.. كررت نظرها ثانية الى عمر وقالت:

-من أخبرك عن مكاني.. أم أنها الصدفة؟

رفع عمر حاجبيه بجاذبية جميلة وقال:

-كلا.. ليست هي الصدفة.. إنما حرصت على رؤيتك ثانية.. فقد شعرت أنني لم أشبع من رؤيتك تلك المرة..

ألقت ريم الازهار التي في يديها على الطاولة لتعيد ترتيبها ثانية وهي تنتعش بكلام عمر الجميل ولم تقل شيئا بل أشعرته برغبة في أن يكمل كلامه فقال:

-ولم يرشدني إلا شابا أسمه سالم..

تنفست ريم بغضب وشعرت أنها تستنشق سما وهي تسمع أسم ذاك الشاب الذي صنع لها مدينة من الأحزان لا تنتهي..

كان عصام يفرك يديه وهو يرقب الأفق من أمامه.. هذا ما رآه حمزه ظاهرا حين دخل إليه يحمل فنجانا من القهوة الساخن الذي أسكنه الى جانبه.. في نفس عصام ذكريات تنخر قلبه وتؤلمه.. يحاول فيها أن يعيش مجددا لينفض عن نفسه ذلك الشعور بالموت دون الحبيب.. وهنا تصمت الكلمات ويستسلم العاشق لدوامة تأخذه الى زمان لا يسكنه إلا الحبيب ولمكان لا يوجد فيه غيره.. ومع أن حمزه أقترب كثيرا منه لكن عصام لم يشعر به إلا بعد أن وخزه بهدوء قائلا:

-ماالذي يقلق أخي الى هذه الدرجة؟

تأفف عصام قليلا وعاد بكرسيه الى الوراء وهو يرقب دخان القهوة المتصاعد.. هزرأسه نافيا أي شيء.. إلا أن هذا لم يقنع حمزه الذي جلس بقربه وقال:

-مرشهر وأكثرعلى غياب ريم.. وأظن أن هذا من حقها..

إستفزت كلمات حمزه عصام وهو يعدل كرسيه وينظر الى شقيقه بجدية ليفضح بملامح وجهه ما كان يفكر فيه قبلا ثم قال:

-ما هو الذي من حقها؟ أن تغيب فلا يعلم أحدا عنها شيئا؟..

-أجل.. فقد قسونا عليها.. بل إن....

-إن ماذا؟ هل ترغب بأن نركع تحت أقدامها لتأتي وتسأل عن جدتها يا حمزه؟

أضحكت كلمات عصام حمزه بسخرية واضحة وكأنه يعلم ما يدور في ذهن شقيقه فقال:

-كفى يا عصام ..أنت وأنا والقرية كلها تعلم أنك في شوق بالغ للقاء ريم وأنك تحبها وتعلق كل هذه الاشياء على جدتها فكف عن مهاتراتك..

شعر عصام أنه وصل الى نهاية لم يتوقعها في حديثه مع شقيقه فما أن وقف حتى بدأ يتكلم بصوت مرتفع ويصرخ قائلا:

-لكني لم أقل شيئا يزعجها.. فلا أعرف سببا لغضبها..

أنتظر حمزه ثوان ليستوعب ما قاله عصام.. ثم قال:

-عجيب أمرك.. وتسأل عن سبب غضبها؟ هل ثمة أمر لم تقم به منذ وقت طويل لا يثير غضبها يا أخي؟

-في كل الأحوال ما بيننا لا علاقة له بسؤالها عن جدتها ..فانا لن أمهلها فترة أطول لتأتي.. وبعدها لن اسمح لها بالمجيء أبدا..

-ولكن ليس من حقك أن تعاقبها دون وجودها أو دفاعها عن نفسها..

-هذا لا يعنيني.. إلا أنني سأفعل ما لا يتوقعه أحد مني..

بدأت الامور تسوء كثيرا وبسرعة.. في تلك اللحظة التي أنهى فيها عصام حواره وخرج تاركا حمزه يتخبط في أفكاره..

-الى هنا ويجب أن أنهي هذه المسرحية الساخرة التي كنت فيها شخصا مزيفا لا قيمة له.. فلم أعلم بذلك إلا في النهاية.. إنها نهاية مؤلمة.. تقتلني وتخنقني.. فقد علمت بعد فوات الاوان أن كل ما مضى كان وهما تافها كمستنقع قذر لا حدود له..

كلمات ريم التي كانت في نصفها الاخر تنم عن مدى الالم الذي يعتصرها.. هذه الكلمات أبكت سلمى بألم شديد فقد أستسلمت ورفعت راية عشقها المحكوم عليه بالإعدام القاسي.. كانت سلمى على علم أكيد بأن وجود عمر فجأة في حياتها لم يكن هو السبب.. لكن ربما أنه حرك مشاعرها وجعلها تقف بمواجهة الحقيقة التي أخفتها عن نفسها لسنوات.. فلم يكن

هناك جدوى من عشق عصام إلا الألم والخذلان.. حاولت سلمى لأيام طويلة بأن تقول ما تخفف به مشاعر ريم المتأججة.. فما الذي حدث؟

هي الحرية.. تلك القلادة التي تهدى للعاشقين لحظة الفراق.. فيها ألف ذكرى حيث يغفر العاشقان لبعضهما وعدا قطعاه على حبهما بأن لن يكون لسواهما.. على الا ينظرا الى الخلف أبدا.. حتى لا يكتشف أحدهما أنه عاد حرا بقيد جديد يقتل كل معنى للحياة.. حيث لا قلب يخفق ولا أنفاس أجمل ما فيها قسوتها وأحزانها..

ثلاثة أشهر مرت لم تعد فيها ريم الى القرية ولم ترجدتها.. كانت تعاني من صدمة قوية قررت فيها أن تجمع كل شجاعتها التي فقدتها منذ رحيل والديها ثم تصنع قرارا صعبا وصلبا لتقاوم فيه حياتها ومستقبلها المليء بالهموم.. وهذا كان حال عصام.. فقد لزم الهدوء الغاضب وقد بت في موضوع عودة ريم لرؤية جدتها.. إنها أيام طويلة تلك التي فرقت بين العاشقين المتألمين.. ومن حولهما الناس جميعا يترقبون وملؤهم أمل فيما تخبئه الأيام..

-كم زهرة أقدم لك حتى تخبرك كم أحبك؟

لم تكن ريم تجد متسعا في قلبها لتعشق من جديد.. فهي تعبت كثيرا لتبني سدا في قلبها امام أي غزل جديد.. أنه عمر.. ذاك الذي هربت من عشق عصام إليه.. فلعله ينسيها كل ما مضى.. كانت تبتسم وهي تتخذ الكثير من القرارات التي تغير حياتها على علمها تماما أنها ليست الى الأفضل..

ربما أن الألم حين يأتي يصعب فيه الإستمتاع بالسعادة إلا إذا كانت جميلة مزينة بالحب.. وهذا شأن ريم حين التقت بهدى في محل أزهارها فجمعتهما لحظات فرغت كل واحدة منهما أحزانها فيها.. كانت ريم تتجنب أي حديث عن القرية وهذا ما شعرت به هدى حين سألتها مرارا عن جدتها فلم تجب.. فقد أنهيا طعام الافطار وفاطمه تجلس بينهما في محاولة لتغيير الأمور إلى الأفضل.. تنهدت هدى بحذر وهمست تنادي ريم بهدوء:

-ريم..

رفعت ريم رأسها لتلتقي بعيني صديقتها وقد عرفت فيما تفكر.. ومع هذا لم تستسلم هدى لتلك النظرات بعدم رغبة ريم بالحديث عن أي موضوع فقالت:

-هل حقا تنوين الزواج بعمر؟

أعاد سؤال هدى ريم سنوات طويلة إلى الوراء منذ بدأت ريم تعي تماما معنى الوطن والحب والقدرة على إستيعاب الاشياء بوضوح.. وكان هذا يمنحها الإستغراق في تلك الذكريات التي تعطيها شعورا بضرورة الألم حتى الموت.. هزت رأسها ولم تقل شيئا.. كانت ملامحها يائسة وقليها ميت.. أشبه بتمثال لا حاجة لأحد به.. أثار منظرها الشفقة في قلب هدى وفاطمه.. وكان هذا سببا في مغادرة فاطمه للجلسة وسؤال هدى للمرة الثانية قائلة:

-ريم.. هل تدركين عواقب ما تفعلين؟

أشاحت ريم وجهها قليلا لتداري عاصفة أسئلة صديقتها القاتلة .. فابتسمت وقالت:

-أرجوك هدى.. أنا لا ارغب بالحديث حول هذا الموضوع أبدا..

-ريم لا تحاولي الهرب من عشق فاشل لتقعي في مطب حياة بائسة فتندمي طوال حياتك..

-الندم يا صديقتي هو الصفعة التي يهديها لنا الزمن لنستفيق من أوهام أحلامنا..

-ريم كفي عن المكابرة..

-منذ فترة وجيزة حذرتني من عشق عصام وذكرتني أنه لم يعد ملكا لي.. ولا يحق لي عشقه.. أما الأن فلا تريديني أن أبحث عن بديل..

كنت أستفزك لتدافعي عن حبك حتى اليأس ..فالبحث عن بديل سيقتلك ويظلم عمروكذلك عصام..

-أما انا فقد ظلمت بما فيه الكفاية.. على الاقل في حياتي الجديدة جدتي ستكون معي.. ولدي شخص يحبني دون أن يلقنني دروسا قاسية.. فلماذا لا أبدا من جديد؟

ريم وهدى كانتا على علم تام أن حديثهما لا أصل له من الصحة وتحاولان من خلاله الوصول الى برأمان يرتاح فيه الجميع من إرهاق سنوات طوال.. فقد كررت ريم مرارا توسلاتها لهدى بالتوقف عن هذا الموضوع.. لكن الالم الذي كان يعتصر هدى حين تذكر عصام كان يدفعها لأن تدافع عنه حتى أخر لحظة..

جل ما كان يفكر فيه حمزه لأيام طوال هو عصام.. الذي تقبل زواج ريم ببرود عجيب.. مما أقلقه وكان يثير غضبه بين حين وأخر.. فلم يتأثر أحد لهذه النهاية أكثر منه.. وهذا ما لاحظته والدته وهي تشعر بالقهر التي يخفيه حمزه كلما أراد الحديث معه شقيقه.. ومع ان عصام كعادته كان هادئا بعد أن أعتاد على غياب ريم الطويل.. والتفكير بغيابها طوال العمر إلا أن حمزه حاول أن

يجد المبرر لهذا الموقف السلبي الذي كان يتخذه عصام من فتاته التي أحبها منذ وقت طويل..

وفي لحظات شتاء هادئة جمعت بينهما أستغل حمزه عودة شقيقه باكرا ليبدأ بقوله:

-هل ستترك ريم تفعل ما تشاء؟

حركت كلمات حمزه الضحك المصطنع في وجه عصام فرفع كتفيه لا مباليا بهذا الأمر.. تأفف حمزه طويلا من جواب عصام ثم قال ثانية:

-ليس من حقك أن تتركها يائسة وحزينة لتفعل ما لا تدركه من أمر خطير..

نظر عصام بجدية الى شقيقه وملامح الغضب لا تفارق وجهه فقال:

-هذا شأنها.. علينا أن نحترمه وواجبنا يقتضي أن نريح انفسنا من التفكير بأمور الاخرين الخاصة..

أزعجت كلمات عصام شقيقه فقام عن كرسيه مستفزا ومتوشحا بغضب شديد ليجد نفسه غير قادر على التحكم به فصرخ بصوت مرتفع قائلا:

-ليس ثمة أنسان على وجه الارض يحكم لك بالحق وقد أفنت حياتها في حبك لتتركها كسفينة بلا شطآن..

بدا الجو بين الشقيقين مشحونا بالغضب.. حين رفض عصام نبرة شقيقه المرتفعة.. فوقف أمامه ليتبادلا الصراخ ولاول مرة كما تشهدها الام.. إلا أن هذه المرة لم يستسلم حمزه.. بل كان يدافع عن ريم وكأنها قطعة من جسده.. يحاول أن يستنهض عشقها في قلب شقيقه الهارب منه.. فأكمل قائلا:

-عصام.. أتوسل إليك أن تكف عن أنانيتك.. وتأخذ بيد ريم فهي لا تحتاج لأحد في الدنيا كحاجتها إليك الأن..

-لا شأن لك بهذا الامر..

-بل كل الشأن لي.. فأنا لن اسمح لكما بدفن عشق قديم..
-أما أنا فأرغب في أن أزيد من معلوماتك لأخبارك بأنني سأتزوج في اليوم الذي تقرر فيه ريم الزواج.. لعلك ترتاح قليلا من آلامك..
وحين يصل الجميع الى النهاية في لحظة واحدة لا يهتم أحد للفصول أو الأيام.. فهي مريرة ولها طعم الاحتلال المقيت..

دقائق كثيرة لا يدركها حمزه وهو يحاول طويلا كي يستثير فيها ريم للحديث.. إلا أنها كانت تتعلل برغبتها في إتمام إكليل الأزهار الخاص بها ليوم زفافها والمتبقي له أسبوعا واحدا فقط.. كانت تبتسم وهي ترمق حمزه بنظرات غريبة بين لحظة واخرى.. لتتنهد بنفاذ صبر وتفرغ مما في يديها مستمعة لحمزه الذي قال بغضب بسيط:
-ريم.. ألن تكفي عن تجنب أسئلتي؟
ابتسمت ريم وهي توكيء رأسها على يدها ترقب حمزه بإهتمام بالغ لتقول:
-قل لي ماذا تريد..
-أريدك أن تجيبي عن أسئلتي..
قدمت ريم رأسها إلى الأمام قليلا وقالت بهدوء:
-تفضل..
قلب حمزه نظره بين أزهار ريم ووجهها وكأنه يتجنب الحديث عما يزعجه إلا أنه مضطر لإنهاء فصول هذا العشق المتعب.. فقال بخجل واضح:
-هل حقا تستطيعين العيش دون عصام؟
كانت ريم تعرف تماما أن هذا هو صلب الموضوع الذي سيتحدث فيه حمزه فكانت ملامح وجهه جاهزة لأن تتغير بسرعة الى الحزن وهي تنقر الطاولة بأناملها الصغيرة.. أرتشفت أخر رشفة من فنجان القهوة الذي صنعته

فاطمه إكراما لحمزه ثم تنهدت بحرقة وقالت:

-لا..

على الرغم من أن حمزه كان على علم تام بأن ريم صادقة فيما قالت إلا أنه تفاجأ بجوابها الجريء والذي يخالف تماما ما ستفعله بعد أيام من زواجها بأخر.. مرت لحظات قصيرة تدارك فيها حمزه ما سمع ثم قال:

-فلما تنوين الزواج بغيره إذن؟

أخفت ريم إرتعاش يدها بغزوها لشعرها الكثيف المنسدل وأسندت ظهرها على الكرسي لتقول:

-لأني تعبت يا حمزه.. وأتعبت شقيقك معي.. منذ التقينا أول مرة وأنا أحمله مسؤولية نفسي.. فكان أبا وصديقا وحبيبا وخطيبا وكل شيء في حياتي.. بذل جهدا كبيرا لينزع مني الخوف من الاحتلال وعلمني ألا يدفعني الخوف إلى إرتكاب الكثير من الحماقات..أظن قد آن له أن يرتاح قليلا من عنائي.. فلعلي بزواجي من أخريكون له المبرر لأن يرتبط بإمرأة أخرى فينتهي كل شيء..

-ولماذ أكتشفت هذا الآن؟

-لا أعرف .. حين نصل الى النهاية تتهاوى الأشياء بسرعة..

تلك الثواني التي فصلت بين حديثي ريم وحمزه أعطته فرصة ليقول بأمل جديد:

-ما رأيك بهدنة ترضي جميع الأطراف؟

حاولت ريم أن تخرج بأبتسامتها عن قهرها فقالت:

-وما نفع الهدنة إذا كانت الأطراف راضية بالحرب؟

كلام ريم لم يقنع فاطمه أو حمزه الذين كانا على يقين بان هذا ما ينبغي أن يدفعها الى الارتباط به اكثر.. لكن اليأس الذي دب في أوصالها فأصبح كعقد يلفها ليلقي بها رويدا رويدا الى الهلاك الذي لا رجعة فيه.. لم يستطع حمزه لفترة طويلة أن يغير من رأي ريم المؤلم وهذا ما شغل باله حتى وصل الى بيته حيث والدته والجدة يرافقهما عصام وقد أرخى جسده على ذاك الكرسي يشرب الشاي ويبتسم بفرح ملحوظ ..أستفز هذا المنظر حمزه كثيرا فلم يقل شيئا رغبة منه في ألا تصل الأمور إلى الاسوأ مما هي عليه بينه وبين شقيقه.. لذا ألقى التحية وأتجه الى غرفته لولا صوت عصام الذي أوقفه قائلا:
-ألم تخبرك ريم عن موعد زفافها؟

ضجر حمزه من برود عصام القاتل.. تأفف طويلا وقال بغضب:
-يوم الجمعة القادم..
ضحك عصام طويلا لتثير ضحكاته استفزاز حمزه الذي عاد ليقف أمام شقيقه في رغبة منه لأن يفرغ غضبه في وجهه فقال:
-ولماذا تسأل يا عصام؟
-أبدا.. إنما رغبت في أن أرتب أموري ليكون يوم زفافي في نفس اليوم..
غيرت الجدة مجرى الحديث وهي تبحث عن نظارتها لتسمع ما يقوله الشقيقان وقبل أن تجدها قالت بإستغراب:
-عن ماذا تتحدث يا عصام؟

وقف عصام بعد أن وضع كأس الشاي على الطاولة.. اتجه الى حيث جدته ولم تغادر عيناه وجه حمزه الغاضب ثم قال مستهترا:
-إنها حفيدتك يا جدتي تنوي الزواج بغيري..

بادل حمزه شقيقه نظرات قاسية وقبل أن تعلق الجدة قال بصوت قوي:
-هل ترغب في أن تقضي حياتها كلها بإنتظارك لتحنو عليها؟
ابتسم عصام ليداري تلك المشاعر الكثيرة التي يخفيها ولا يحسن أحد معرفتها..

أقترب خطوات بسيطة من شقيقه وهمس بصوت منخفض قائلا:
-إن أستطاعت أن تتزوج بغيري فلتفعل..
كلمات عصام هزت حمزه بشكل عجيب.. لم يستطع فهمها.. توقف قليلا عن التفكير ليصل الى عجزه عن فهم شيء ..نظر الى والدته المتألمة ثم وجه نظره ثانية الى شقيقه ليقول بجدية:
-أنت مغرور ولا تفكر إلا في نفسك.. لا تعلم حجم الحزن الذي تغرق فيه ريم الأن ولا تفكر في أمي التي لا ترغب بزوجة أخرى لك.. حتى أنا الذي تعلم تماما كم يحزنني هذا الامر ويؤرقني.. أقسم لو كان وطني يشعر ..لما تركك تضحي يوما من أجله..
كلمات حمزه القاسية أثارت دموع الام المخبأة منذ وقت طويل وحنق عصام حين صمت وهو يخفي ما لا يعلمه احد..

كذلك مرت أسراب الطيور وهي تطوي ساعات تفصل عن الالم ومعها تطوي وتحمل كل الاحلام والرغبات التي غادرت كثيرا من الاحبة ومضت.. وحين نعجز معها عن فهم الحقيقة يبدو الحب كطيف بألوان كثيرة تغادر دون أن نلملمها وحين نصل الى الحقيقة نتمنى ولو للحظة أن يرحل كل شيء لتعود الحقيقة حلما صغيرا يغفو على صدر أمه من جديد..

كانت ريم تكابر على حزنها وشفقتها على نفسها.. خمسة أيام فقط تفصلها عن يوم زفافها.. لا تعرف ماذا تفعل؟ هل تترك كل شيء وتعود من جديد؟.. لا تستطيع.. فلتوها أنهت مع عمر كل ما تبقى لحفل الزفاف.. ورغم شعوره بالندم بعدما علم الحقيقة من سالم إلا أن إصرار ريم على الزواج جعله ينسى كل شيء.. وجعلها تتمسك بهذا الخيار الذي بدأت تشعر وكأنه يتسلل الى جسدها.. لم تكن تعلم يوما أنها ستصل الى لحظة تقتل فيها كل شيء.. الماضي والحاضر وكذا المستقبل.. فهي متألمة.. تنشد لحظة حب أو لقاء يجمعها مع عصام وللمرة الاخيرة.. فكان أن أهداها الزمن الامنية الوحيدة التي كانت تراها أشبه بمعجزة.. حين أشرق صباح ذاك اليوم لتدير ظهرها فتجد عصام يقف أمامها.. وبه أشرقت كل الدنيا من حولها..

كان صباحا جميلا.. فيه نكهة العشق التي تعيد المرء سنوات الى الوراء.. فيتذكر شوارع قريته وثمار أشجارها وتلك الينابيع التي تصطف فيها فتطفيء لظى العاشق بماءها.. يتذكر كم مرة أرخى قلبه ليستقبل نبضات حب قصيرة فتمضي ليستقر القلب الى حبيب أوحد لا يعرف سوى لغة العشق المتجدد.. كان يضني ريم تلك اللحظات أنها عجزت تماما ككل قوافل العاشقين من قبلها وبعدها على مقاومة الحب.. أو حتى لبس قناع تتجنب فيه نظرات هذا الشاب.. كم مرة حاولت أن تنتصر بتركها لحبه.. والان أنتهى كل شيء وأيقنت أنها خسرت وقد منيت بعشقها له إلى الأبد..

كل هذه الدقائق التي فصلت بين ريم وعصام لم تكف لأن يملآ الشوق والشغف بينهما فيبدأ الحديث.. حتى فاطمه التي كانت ترقبهما وقد عرفت منذ اللحظة الاولى التي التقيا فيها أنه عصام.. لم تفلح إلا في الاستمتاع بهذا اللقاء البسيط بين أزهار ملونة كأحلام طفل صغير.. أقترب عصام خطوات من ريم التي أفاقت من أفكارها وعدلت عن مبادلته بنظرات جميلة.. أقترب أكثر منها وهي تداري إرتباكها وقلقها من مواجهته.. لم تكن تلك اللحظات تسمع صوت العصافير المحلقة قربا من النافذة والتي تشبه الى حد قريب صوت عصام وهو يلقي بتحيته الصباحية على فاطمه التي أبتسمت طويلا وهي تبادله إياها.. شعرت ريم أن ثمة مؤامرة من الجميع ضدها.. حتى فاطمه وعصام اللذين يلتقيا لاول مرة.. لكنها لم تظهر إهتمامها.. بل بدأت تعبث بالأزهار تحاول ترتيبها دون أن تدرك أنها لا تفعل ذلك وهذا ما أدركه عصام وهو يقترب هامسا بلطف:

-صباح الخير..

حاولت ريم ألا تنصاع تحت أوامر قلبها الذي يرغب بأن يهوي أمام هذا الشاب.. لذا لم ترد التحية بل انتظرت ما سيقول دون أن تلتقي عيناها بعينيه.. لم تلحظ تلك الابتسامة الجميلة التي تزين وجه عصام وهو يقدم لها بطاقة دعوة ويضعها أمامها قائلا:

-على الرغم من أن يوم زفافنا سيكون ذات اليوم إلا أنني كنت أتمنى حضورك.. فعروسي هي أعز صديقاتك.. أما إذا كنت تعتقدين أنني مدين لك بقول ألف مرة أنني أحبك فأنت مخطئة..

كل كلمة قالها عصام كانت كافية لأن تلقي بريم نحو الهاوية.. فهو حقا سيتزوج.. ومن أعز صديقاتها.. من تكون؟ أهي هدى؟ ولماذا فعلت ذلك؟ ولماذا هي بالذات الذي على الزمان أن يقذف بها إلى كل الفصول ثم يتركها جرداة قاحلة دون أي لحظة فرح؟ ومن الذي أعطاه الحق في أن يقرر بأنه يحبني أكثر مما أحبه؟.. كتمت ريم آلامها وأحزانها حتى ذكرياتها.. حاولت أن تبتلع هزيمتها بهدوء ودون أن يلحظ عليها قاتلها شيئا.. لم تستطع.. أشاحت وجهها لتترك المجال لعصام بالخروج قبل أن تنهار تماما.. سمعت صوت أقدامه وهو يتجه الى الباب.. جلست على كرسيها وهي لا تقوى الا على البكاء الذي حاولت اخفائه لفترة طويلة أمام عصام.. وقد خرج بهدوء تاركا وراءه كل الاحزان في قلب من يحب..

الزمان هو نحن بفصوله الاربعة.. وفصل أخر ممزوج نضيفه حين نصل الى قمة اليأس.. فالربيع في قلوبنا قصير يمر كنسائم صيفه السريعة.. والخريف يمد جذوره ليعمق الاسى مع الشتاء الذي يشبه الى حد كبير دموعنا الكثيرة..

كانت ريم تحاول ان تستوعب كل حياتها لتختصرها في هذه الايام القلائل لزفافها.. فقد دفنت نفسها في فراشها.. ترفض فعل شيء.. حاولت سلمى حتى هبه ان تطعمها شيئا.. لكنها كانت تتشبث بالنيل من كل شيء بطريقتها الخاصة.. شعرت أنها بصمتها وحزنها تنتقم من ذاك الخوف الذي ملأها ذات يوم فخسرت به كل من تحب.. منذ يومين وهي على حالها.. لم يتبق لزفافها الا ثلاثة ايام.. كانت تتمنى في تلك الاثناء لو يزورها الموت ويأخذها لعلها تنسى به كل آلامها.. قد أضناها البكاء فكانت تبحث عما يخفف من حزنها

غيره.. لم تجد.. إنه حال العاشقين.. هذا ما قالتها سلمى مرات عديدة لهبه التي أحزنها حال شقيقتها المزري..

لم يكن أحد يعلم ماذا كانت تخفي فاطمه لتدخل بلهفة وسرعة على ريم.. تحاول أن تستنهضها دون فائدة.. لم تشأ ريم أن ترى أحدا.. كانت تحاول أن تتجنب الجميع حتى يوم زفافها لتنسى به مامر معها وتبدأ من جديد.. فكان أخر ما توقعته سلمى وهبه أن ترتسم ملامح الدهشة السريعة والكبيرة على ريم وهي تستلم من فاطمه بطاقة الدعوة التي تركها عصام لها منذ يومين ولم تقرأها.. كل شيء تغير بلمح البصر وريم تنهض من فراشها بسرعة الضوء الشارد إلى مجهول لا يعرفه أحد.

في الساعة الممتدة من بيتها الى بيت عصام.. إختصرت ريم كل شيء وبدأت من جديد تحاول لملمة الزمن المتبعثر من بين يديها.. ملايين من الاسئلة تدق رأسها وهي تقبض على بطاقة الدعوة.. لماذا لم تقرأها قبلا؟ هل أنساها حزنها أن تجد مبررا لهدى التي ظنت أنها ستكون عروسا لمن تحب؟ لماذا فعل عصام هذا؟ ماذا ستقول له؟ وكيف ستلقاه؟ كم هو بعيد بيت عصام! يفصلها عنه سنين طويلة.. وذكريات طفولة.. صديقيها المقعدين التي لم تتكلم يوما معهما لكنهما الامل الجميل دوما.. بيتها المسروق ووطنها الحزين.. سجن عصام المظلم.. قهر المئات ممن يعانون الظلم في كل مكان..

نسائم القرية كلها أجابت حين وصلت بيت عصام ووقفت أمامه.. تجهل البداية لحبها وتعجز عن وصف نهاية له.. ماذا يخبيء لها الزمن وراء هذا الباب الذي ما أن طرقته حتى طرقت معه حزنها وضعفها ..لتسدل الستار على جبينها المليء بالهموم.. حاولت أن تجمع القوة الخفية التي نؤجلها دوما للحظات

خاسرة.. قسمت كل أيامها المريرة ووزعتها على أنحاء جسدها لتقوى على مواجهة عصام هذا اليوم.. ها هو أمامها يبلل وجهه بالماء ثم يمسحه بتلك المنشفة التي تحيط برقبته.. رفعها وابتسم كأسراب طيور محلقة بنصر أكيد.. اقترب من ريم وقد جمعتهما ثوان زينته بالراحة والطمأنينة وألقت في وجه ريم الدهشة والغضب.. واصراره على تلك الابتسامة استفزت ريم وكذا حمزه الذي حاول مغادرة المكان كأمه فلم يستطع ..نظراتهما وعشقهما حتى توترهما كان يجذب حمزه فيشد قدميه نحو الارض دون أن يخطو خطوة واحدة.. زادت ابتسامة عصام وقال بقوة:

-لقد تأخرت.. فأنا أنتظرك منذ ثلاثة أيام..

كان صمت ريم يثقل عصام ويحزن حمزه فيريا فيه جناحي طير لا يلتقيا.. جناح تغزوه الذكريات والاخر تحلق به الاحلام.. ترنو الى الاول حين تحزن والى الثاني حين تفرح.. وهذا ما ودعته ريم.. كانت تنظر فقط الى عصام.. تكويه بعينيها الدامعتين ببراءة.. تخجل فيهما أن تتساقط دموعها فتنفجرا شلال غضب لا يتوقف.. لماذا لا نعود الى الذكريات إلا حين نحزن؟ هذا ماكان يشغل ذهن ريم ..تحاول أن تجد جوابا لترتاح فيه من عناء لحظات عصيبة أقحمها فيها الزمن.. وعلى الرغم من تلك المسافة القصيرة جدا بينهما.. إلا أن الحد الفاصل بين مشاعرهما أسطوري ..فعصام قوي وهاديء حين إقترب اكثر منها وسط ترقب حمزه بدهشة حول عجزه عن فهم ما يجري.. وإزدادت دهشته حين رفع عصام يده نحو وجه ريم المتعب ليداعب بأنامله العاشقة ملامحها الباهتة دون أن تحرك ساكنا.. هو وحده من كان يعلم ذاك السر الذي يصمت ريم بهذه القوة.. كانت يده التي سكنت وجهها تملؤها بالقهر والشوق والعتاب الجميل فيما كانت تزده ثقة وحبا ورجولة.. حتى همس لها قائلا:

-من أرقَ هاتين العينين الجميلتين؟

حاولت ريم أن تحرك شفتيها لتدفع حب هذا الرجل بعيدا عنها وتفك ذاك اللغز الذي أحاط عجزه وهو يبحث عن تلك المعجزة التي قلبت كل شيء في يوم واحد..فهما على وشك ألا يلتقيا وأن يبحر كل منهما في بحر زواج من أخر ..فماذا حدث؟ هذا الصمت أثار أم عصام التي وقفت تسترق ما يحصل بين هذين العاشقين المكابرين.. لكن أملها مات بسرعة وريم ترد بخليط من البرود والغضب قائلة:

-أتسخر مني؟

أبعد عصام يده عن وجه ريم كي لا تزداد غضبا..وعاد الى الوراء وقد ملك زمام كل شيء ومنذ وقت طويل لم يعلمه أحد.. هذه الدقائق اعادت حمزه الى ذكريات ايام قصيرة حين كان عصام يتحدث بثقة عن عدم قدرة ريم بزواجها من أخر.. وكأن الأمور بدأت تتضح قليلا..فعصام أستخدم وكالة ريم لوليد ومن خلالها أعاد أرتباطه بريم مجددا.. أما الآن فهو يقف مواجها لها يستنشق بقوة هواءا مريرا يفصل بينهما ويقول بعينين متلألئتين حبا:

-وهل يسخر العاشق؟

أخرجت كلمة عصام ريم عن طورها وهي تصرخ بوجهه قائلة:

-أنت أبعد إنسان عن العشق في العالم..

ضحكة عصام التي تشبه الى حد كبير ابتسامته المستفزة أثارت ريم وهو يبحث عما يمكن أن يسيطر فيه على غضبها.. وما تشعر به.. ودون صوت اقترب حمزه ليرقب ما سيحصل بإهتمام واضح.. فما كان عصام إلا أن يعود للأقتراب من ريم ويقول:

-مهلا يا ريم فقد جمعتنا سنين حب طويلة..

-لكنك قتلتها بيدك..

جواب ريم وحده غير معالم عصام وهو يجول ببصره ليعاود النظر اليها بحزن ويقول:

-لا يا ريم لست أنا من قتلها.. لو أنك رقبت العم ابا محمود وهو يموت لما قلت ذلك..كان يموت بهدوء وألم دون رحمة أو شفقة من ذاك الاحتلال البغيض الذي منع عنه وداع أحبابه ..كان يتقن تعليم الآخرين كل ألوان المشاعر في لحظات.. مبتسما لاقى الموت.. كلقائه لطفله الذي لم يره لحظة واحدة.. قد غادرنا وهو يهمس لنا أن الحرية فراشة تطير ولا يقتلها الا الجبن.. لو رأيت ماذا يعني لنا السجن حين نتجول في معالمه نبحث عن الموت في كل ركن.. نرجوه ونتوسل له أن يزورنا ولو للحظة.. وها أنت قد أهديتي سجاني المال ليقتل أبا محمود ويدوسنا بأقدامه.. جبنك قتلني.. خوفك دمر في نفسي أخر حلم تشبثت به لأخرج من السجن دون جنون..

كانت ريم تتألم وتبكي بهدوء وكذا أم عصام وهي تسمع لأول مرة أبنها يتحدث عن السجن بهذه المرارة.. إلا أن شعور ريم بالذنب قيدها فلم تجد منفذا إلا أن تشعر عصام بأنه عاقبها وهي تهمس بحزن قائلة:

-وأنت قد سحقتني يا عصام..

-بل كنت كالطائر الذي يحوم حول أحبابه ..يرغب منهم أن يواجهوا أنفسهم ويقتلوا فيها الجبن.. أردت ان أحميك من نفسك.. من كل لحظة يمكن للخوف أن يدمر بها حياتك ثانية.. فقد كنت واثقا ان بعدي عنك سيكون لك عالما جديدا تمقتين فيه كل ما كان سببا في فراقنا.. هذا الاحتلال هو قدرنا يا ريم ..علينا ان نضحي ونبكي ونتألم ليغدو وطننا أروع وأجمل..

-وهل تعتقد أنني سأعود اليك الان؟

زاد كلام ريم بريق الحب في عيني عصام وهو يمشي خطوات ليتكيء على كرسيه ممتلئا بالثقة وهو يهز رأسه مبتسما بأمل.. مسحت ريم دموعها وكأنها امتلكت كل قوة في العالم لتقترب من عصام أكثر وتصرخ بوجهه قائلة:

- -هذا ما لا يجب أن تحلم به أبدا.. وأسمي المكتوب على بطاقة الدعوة لا يعطيك الحق في جعلي زوجة لك..

بدأت الخيوط تجتمع في يدي حمزه وهو يستمع لكلام ريم الذي أكد له ما توصل إليه من حقيقة.. لم يكن يعلم تماما ما يحصل او ما سيفعله عصام وهو يقف ثانية ليهديء من روع ريم قائلا:

-ومن أخبرك بأنني أنتظر رأيك؟

أصمتت كلمات عصام ريم وهي تشعر بالاحباط والالم يلفانها.. تحاول أن تعرف ماذا يجري.. تأففت طويلا وتنفست بعمق مرات عدة وهي تزرع في نفسها القدرة على ضبط أعصابها قائلة:

-هل ستتزوجني رغما عني؟

هز عصام رأسه بهدوء وقال:

-أجل..

عم الغضب المشحون بالدهشة وجه ريم.. وكذا والدة عصام.. فهما لا تفهمان شيئا حتى بعد ان ألقى عصام بمفتاح السيارة الى حمزه ليلتقطه في ثوان قائلا له:

-إذهب الى خالة ريم وأحضر كل أشيائها الخاصة ولا تنسى أن تدعوهم الى حفل زفافنا بعد يومين..

حاولت ريم أن تسيطر قليلا على ما يحدث.. لم تستطع إلا أنها أقتربت من حمزه لتمنعه من الذهاب وهو يفكر في تلك الأمنيات الصغيرة التي تأتي في وقت ضيق فتزعجنا بحضورها.. حاول حمزه أن يقف ليرى نهاية هذا المشهد المؤلم لريم ..لكن اصرار شقيقه عليه دفعه للخروج تاركا ريم وعصام في مواجهة حامية بعد أنسحاب الام..

في لحظات كهذه.. حين نعشق بصمت فيحول بيننا الوطن تغزونا الأمنيات ..فننشد وطننا حينا وحبيبا حينا أخر.. ونمد خيطا من الضوء بينهما ليمتزج الجميع في أطياف بألوان قوس قزح ونصبح مكبلين بلغة عشق واحدة..

كان يعلم عصام تماما أن ريم لم تعرف شيئا بعد.. بل تمسكت بالصمت وهي تعطي عصام الفرصة الأخيرة ليسرد لها ما حصل قبل رحيلها الى زفافها الآخر.. فكان اقتراب عصام منها يزعجها ويقيد يديها بوهم لا تحسن الفكاك منه وهذا ما تأكد منه حين ضمها بكلتي يديه لتبعده عنها وكأنه طير ينقض على فريسته بلذة متناهية..

لم تستطع ريم أن تمحو من عينيها بريق الشوق والخوف مجتمعين.. لم تراودها الا فكرة حمقاء واحدة وهي أن تغادر لتتخلص من سجن عصام لها .. فكانت النتيجة كما تخيلتها ريم بعد فوات الاوان.. كانت تشعر وعصام يحيط بها أنها أول خيط للفجر.. ضعيف.. باهت لا نبض فيه للحياة بعد.. إلا أنها لم تستسلم.. لا لعشقها ولا لذاك الشاب الذي أحبها طويلا وعذبها بحبه ولا حتى لمشاعر الحزن المفترسة لها من كل صوب.. كان يثيرها بثقته وهدوئه وهو يقترب

منها فلا حاجز بين فمه واذنها الصغيرة التي أبعد خصال الشعر المحيطة بها وهمس لها قائلا:

-لأنك قصتي التي بدأت منذ امتزاج نبضات قلبي ودموع عيوني بلون الحرية والانسانية ..فأجلت الزمان وصار صوتي ظلا لكل مظلوم حزين.. صار عمري يقاس بحبي.. فحينا اسعد فكم أشعر أني كبرت.. وحينا ينتهي كل شئ..فيكون عمري صغيرا.. أصغر من قطرة مطر صيفية ..هذه ايامي وهذا عمري.. هي ملك لك..لانك الحبيبة.. فلا تسألي عن أيام أجللتها حتى يكتمل قلبي بفرح أحبابه الاحرار..

على الرغم من أن مفردات عصام قليلة لكنها كانت توخز ريم في أذنها وقلبها.. فهي لم تتخيل أبدا أن كل هذا يمكن ان يحدث وبهذه الطريقة.. كيف يمكن لها ان تعود أسيرة لعصام بعد كل ما حدث؟.. لم تستفق على هذه الصدمة إلا بعد أن رأت عصام وقد كان يضمها بكل ما أوتي من حب.. لم تجد بدا لها إلا أن تتمسك بالبكاء دون أن تقول شيئا..

مرت دقائق طويلة وريم تبكي بحرقة بينما عصام يحاول أن يثيرها لتقول له أي شيء.. كان يهمه فقط هو أن تخرج ما في قلبها لترتاح قليلا.. وهذا كان سببا كافيا لأن يحتمل رفضها له بتلك الطريقة العنيفة..

فهو على علم تام بأنها حزينة وتشعر بالخذلان لكنه متأكد بأنه أوصلها الى برالامان بعد أن أعادها الى قلبه ثانية وأغلق عليها بابه..
الى الابد..

رسالتنا :

نشر كل إنتاج إبداعي ذي جودة عالية وأفكار أصيلة تعبر عن هويتنا العربية وتاريخنا العريق، تحترم قيم مجتمعنا ومعتقداته، لا تساعد في نشر العنف أو العنصرية، ترسّخ لمبدأ المساواة والحرية والعدالة. والسعى نحو الارتقاء بالأدب العربي في كافة مجالاته، والوصول به نحو العالمية.

لمراسلتنا بشأن نشر الأعمال الأدبية

arabiclibrary2017@gmail.com

صفحتنا على موقع الفيسبوك

facebook.com/arabiclibrary2017